ساحر الأواني
الفنان سعيد الصدر



مختار العطار


ساحر الأوانى

سعيد الصدر

مختار العطار

الإشراف الفني

[illegible]



مقدمة

« الفازة » أو الآنية الخزفية التى نقتنيها في بيوتنا ، والتى نشاهدها باعجاب في المتاحف ، والتى نسمع عن بعض منها يباع في المزادات العالمية بمئات الألوف من الجنيهات .. هذه الفازة هى فن جميل مؤثر من فنون الرؤية أو الفنون التشكيلية .. وربما كانت أول فنون الانسان ، اكتشفها في فجر التاريخ وهو يبحث عن آنية للشراب والطعام ، صنعها بيديه من الطين ، وأعطاها الصلابة في النار ، ثم بدأ بالتدريج ينقشها ويزخرفها ويكسوها بالألوان لتتحول على مدى الزمن وتعاقب الحضارات ، من أداة للنفع وضرورة من ضرورات الحياة اليومية ، الى شكل مجرد ، يشيع البهجة والراحة والجمال .

وهذا الكتاب يقدم أول دراسة تكنيكية عن رائد فن الخزف المصرى المعاصر سعيد الصدر ، نتعرف فيها على تجربة حياته الفنية وتأثيره العميق على فن الخزف المعاصر .. من خلال تعاليمه التى تأثر بها مئات من الفنانين العرب الذين درسوا على يديه ، وقرأوا كتبه ، واستمعوا الى محاضراته طوال خمسين عاما .

ان امتداد ثورة ١٩ من اجل الاستقلال الوطنى في مصر بعثت روحا جديدة في فنون الأدب والصحافة والموسيقى والفن التشكيلى ، وأظهرت جيلا جديدا من الرواد الذين وضعوا القواعد الأولى لفن مصرى جديد ، يستشرف أفكار العصر ، ويبحث في التراث والواقع الشعبى عن أسلوب متميز الشخصية ، يفتح للفن المصرى طريقا في غمار الفنون العالمية .

كان المثال « مختار » أول من ردد أصداء هذه الثورة في

تماثيله التى كانت اساسّ النحت المصرى الحديث ، وتبعه عدد من المصريين الرواد أحمد صبرى ويوسف كامل ومحمود سعيد وناجى وراغب عياد ، وبدأت مصر في بداية القرن العشرين تشهد مرحلة ازدهار فنى ، تنشأفيها المعاهد الفنية والمراسم والمتاحف ، وتقام المعارض الدورية وتنبض الصحف والمجلات بالمقالات النقدية التى يتصدى لها كبار المفكرين والأدباء .. وتحتل حركة النحت والتصوير الحديث في مصر مكانها في الحركة الثقافية العربية وتشع من حولها هالة كبيرة من التذوق والمعرفة في أوساط الجماهير العربية بعد أن كانت وقفا على الأجانب وحدهم .

ويختار فناننا سعيد الصدر لنفسه مجالا آخر .. من الطين والألوان والأفران يبدأ دوره الرائد في بعث فن الخزف العربى من جديد بعد فترة اضمحلال دامت قرنين من الزمان .

لقد كان فن الخزف العربى من مباهج أوروبا في القرون الوسطى .. وشهدت مصر الفاطمية وعراق « سر من رأى » مرحلة ازدهار في هذا الفن طار صيتها الى كل هواة التحف في العالم .. أعطت لفن الخزف تكوينات جديدة مستلهمة من الأوانى الاسلامية ، وأضافت لونا جديدا من الزخرفة في التوريق ، وصور الحيوان والنبات ، وحيوية النغمات التى يبعثها الخط العربى على هذه الأوانى .. وفوق هذا أضافت لصناعة الخزف اكتشافا جديدا يسمى « الخزف ذو البريق المعدنى » الذى وفر على اوروبا استخدام الذهب والفضة في تلوين الأوانى الخزفية ،

واعطى حرية واسعة للفنان في تعدد الأنغام اللونية .

ومن هذا الينبوع الغزير استلهم سعيد الصدر تجاربه الأولى ليبعث الحياة مرة أخرى في هذا التراث ، بعد أن أعطاه عذوبة النغم ، ورقة الوتر وعفوية العزف ، وخلصة من بدائية الصنعة وغلظة الأشكال .. ووضع خلاصة تجربته هذه في مئات الأوانى البديعة التى شهدتها معارض مصر والعالم طوال خمسين عاما ، سجل فيها هذه الاكتشافات في كتب ودراسات وضعت بين أيدى تلاميذه ومريديه .

لقد عشت ساعات جميلة من حياتى في مرسم هذا الاستاذ الكبير عند أطلال الفسطاط عندما اصطحبنى اليه صديقى مختار العطار مؤلف هذا الكتاب ، وشاهدت عن كثب كيف يتحول عشق الانسان للفن الى لون من الصوفية والزهد ، وكيف يسبغ الأداء الصبور على صاحبه متعة الرضى وسعادة القدرة على التعبير .. ومضيت أشهد ولادة هذه الأوانى وهى تخزف من الطين والنار والألوان ، بحسابات بعضها يخضع للعلم والتجربة ، وبعضها يخضع للاكتشاف والمفاجأة .

وبضربات سريعة النبض ، تنبعث في الأوانى وحدات الفن الاسلامى في عشق الطبيعة .. الطيور والحيوانات والأشجار والأسماك ، يعالجها سعيد الصدر بفرشاة جمعت بين خبرة أعظم اساتذة الخزف في انجلترا ، وعفوية صبيان الفاخورة عند اطلال الفسطاط .

أما مؤلف هذا الكتاب الاستاذ مختار العطار فهو احد نقاد الفن التشكيلى الدارسين ، نشرت له روز اليوسف مئات الدراسات

عن الفنانين المصرين والعالميين، وكان من الأوائل الذين قدموا للتليفزيون المصرى عديدا من البرامج عن الفن ، والأفلام السينمائية عن الفنانين التشكيليين .. وكتابه هذا يجمع بين لمسة الأديب وثقافة الناقد ، ليقدم لنا في النهاية تسجيلا لحياة سعيد الصدر ، وفنه ، وارادته الهائلة في صنع النجاح ، وفي التغلب على ما في الحياة من المأساة !

ان مؤسسة « روز اليوسف » تنشر هذا الكتاب ضمن سلسلة كتبها عن اعلام الفن المعاصر ، ويسعدها أن يكون بين أيدى القراء وسعيد الصدر يحتفل بعيد ميلاده السبعين .. اعتزازا وتمجيدا لهذا الفنان الرائد .. ومحاولة منا في نفس الوقت لكى يتعرف الجيل الجديد من المثقفين على ما في فن الخزف من الفتنة والجمال ، في عصر تزحف فيه الصناعة على الفن ، وتجثم فيه بالتدريج القوالب النمطية ونماذج البلاستيك على مهارات الانسان الفرد في الابداع والشاعرية !

حسن فؤاد

يناير ١٩٧٩



ـ آنية من تصميم واخراج الفنان الصدر عام ١٩٤٨ .

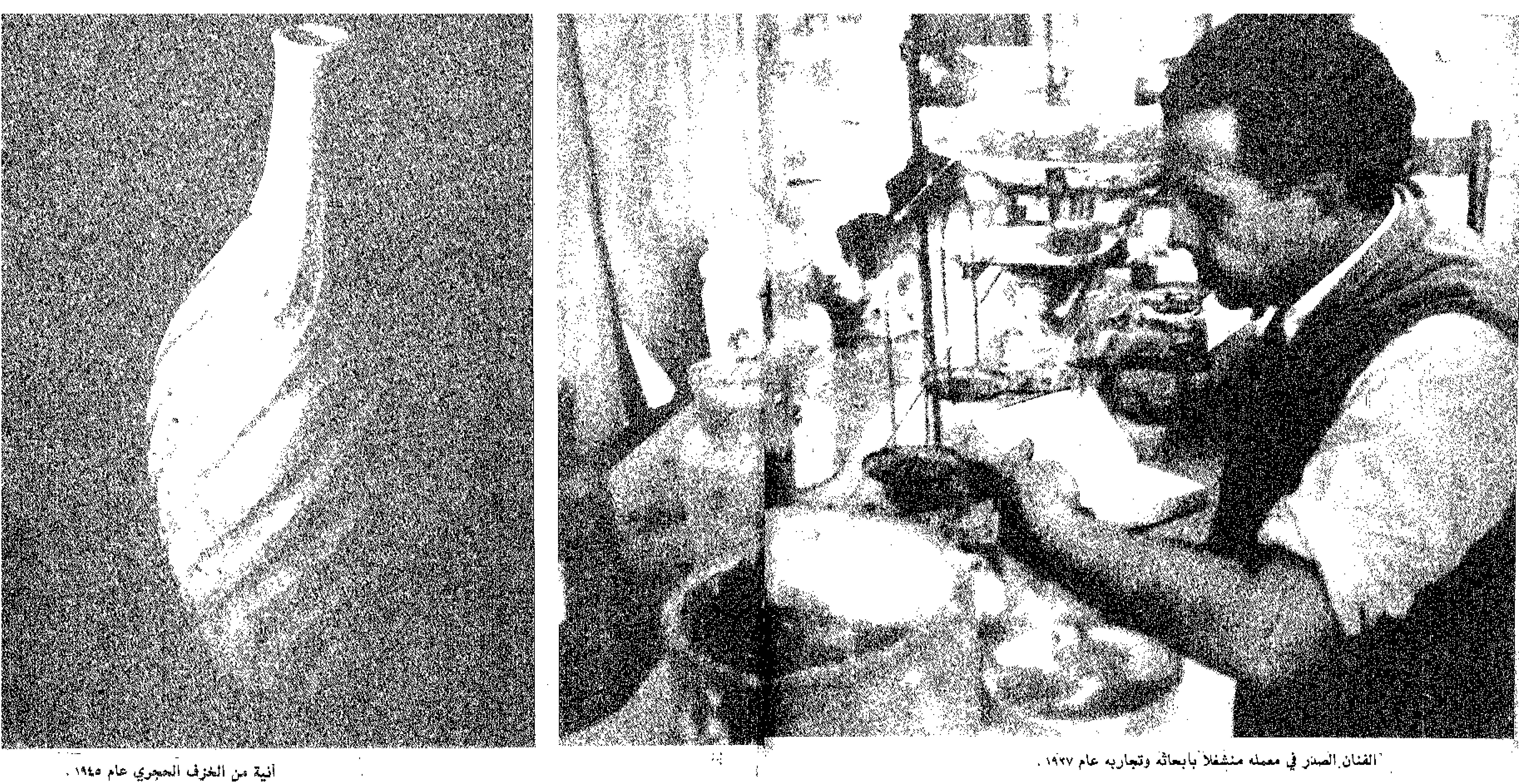
رحلة الأحلام في عالم الطين

مهما طال الزمن . ومهما تقدمت الصناعة والتكنولوجيا .

سيبقى ذلك الحد الفاصل بين الجمال الالى .. والجمال اليدوى .. بين فن الكومبيوتر . وفن الانسان .. بين فن القطعة الواحدة .. وفن الانتاج العريض .. بين نغمات الحبال الصوتية لحنجرة الانسان .. ورنين اوتار الات الموسيقى .. بين صوت الناى .. و .. الصفير الالكترونى للاورغ والأجهزة المستحدثة . سيبقى دائما ذلك الفارق .. يحفظ على الانسان سماته الادمية . يثير في جوانحه الشجن .. في مقابل الاعجاب .. الاحساس العاطفى .. في مقابل الدهشة العقلية . فالانبهار بقدرة الحاوىٔ على المسرح ، يختلف عن الالم الممتع الذى ننتشى به ، ونحن نرقب راقصة الباليه وهى تلفظ أنفاسها تحت قدمى الشيطان في بحيرة البجع .

سيبقي دائما هذا الفارق بين خزف القوالب وأفران الكهرباء . والخزف الا بداعي الذي يولد بين راحتي الفنان سعيد الصدر .. أو غيره من خزافي العالم ، قديما وحديثا .

وسعيد الصدر مصور فوتوغرافي .. ومصور بالألوان المائية .. نحات عازف كمان وكاتب مذكرات وخواطر .. لكن اسمه سيظل في دوائر المعارف وكتب التاريخ .. وقواميس الفن ، مرتبطا بفن الآنية الخزفية المصرية الحديثة . نقول « فن الآنية » .. في مقابل فن الموسيقي وفن النحت .. وفن التصوير .. وفن الرقص .. وفن الأدب .



الفنان الصدر في معمله منشغلا بابحاثه وتجاربه عام ١٩٢٧ .

آنية من الخزف الحجري عام ١٩٤٥ .

ثم انه ليجدر بنا قبل أن ندخل في التفاصيل ، ان نلقى ضوءا على كلمتين . الأولى كلمة « خزف » . وهى الترجمة العربية لكلمة « سيراميك » ، وتطلق على كل ما يصنع من الصلصال ويحرق ليكتسب صفات الصلابة . فالفخار نوع من الخزف .. مسامى .. هش .. غير لامع .. محروم من الرنين . والبورسلين أو الصينى نوع من الخزف .. مصمت شديد الصلابة .. لامع .. له رنين خلاب .

نلاحظ هنا أننا نتحدث عن خامسة وليس شكلا . فالخزف خامة نصنع منها التماثيل ، والكسوات الجدارية وبلاطات القاشانى .. والأدوات الصحية ولوازم الكهرباء .. وأيضا الأوانى . أما الكلمة الثانية فهى ما تقابل كلمة « بوتارى » الانجليزية ، ومعناها « فن ابداع الاوانى الخزفية » . وهذا هو الفن الذى إرتبط به اسم سعيد الصدر في مصر منذ فجر الربع الثانى من القرن العشرين . سنة ١٩٣١ على وجه التحديد . حين عاد من لندن ليسهم في حركة الاحياء

الفنى الكبرى التى بدأها محمود مختار في فن النحت ، قبل ذلك ببضعة أعوام . عاد الصدر ليوقظ فن الخزف المصرى من سبات يرجع الى قرون ثلاثة ويزيد .

وفنان الانية سعيد الصدر كأى فنان اخر .. له طريقته في الابداع .. وأدواته .. وخاماته .. وتعبيراته وأهدافه .. وانفعالاته .. وجمالياته .

اذا جلس الصدر الى الدولاب في ورشته بين اطلال الفسطاط ، فهو ساحر الاوانى .. ملك الصلصال .. الخبير العالم .. ا يقلب أكياس النايلون التى يحتفظ فيها بأنماط من خلطات الطين .

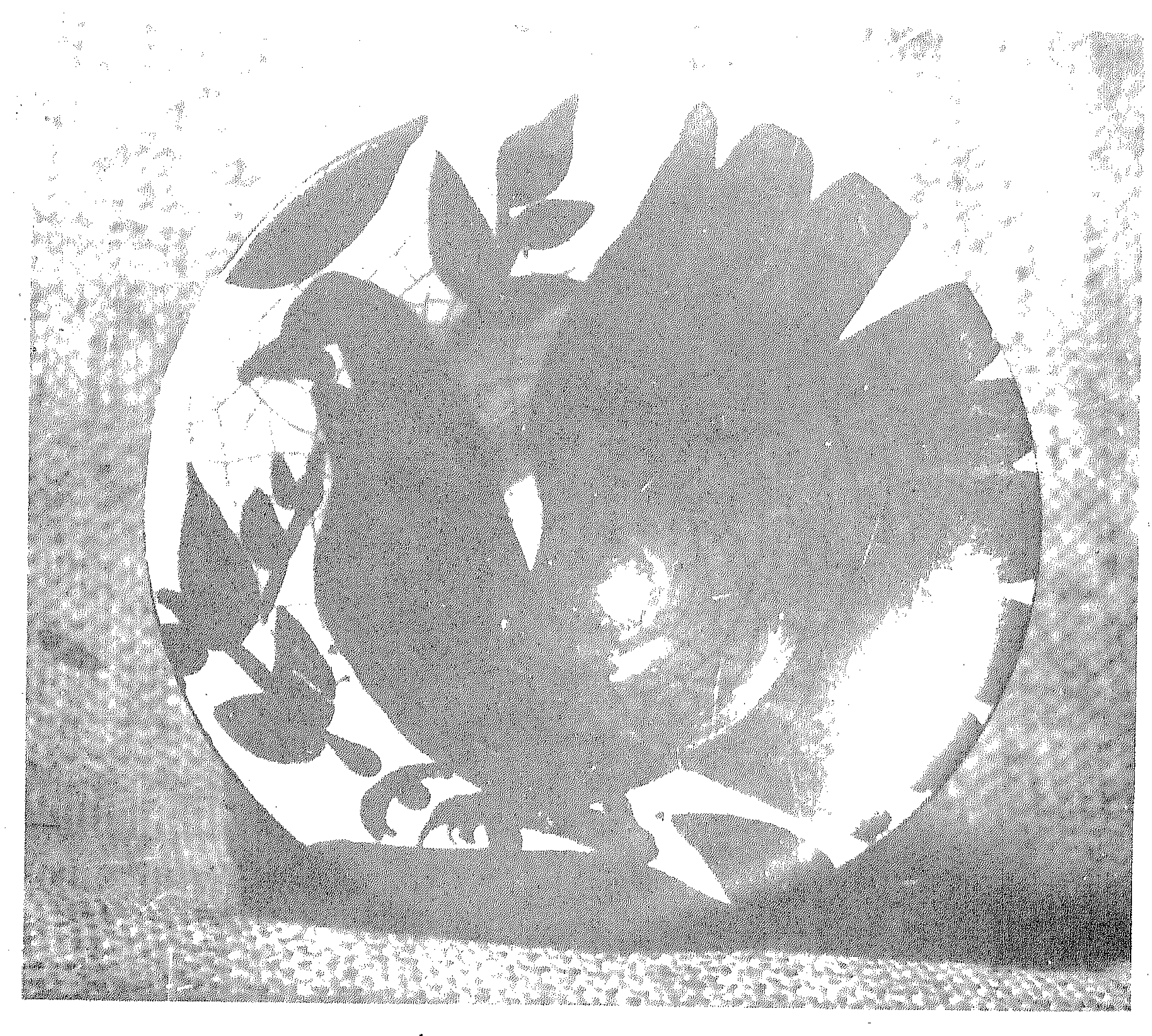
فالطين بين يديه له معنى ومغزى يختلف باختلاف درجة الليونة . ونسبة اضافة الخامات بعضها الى البعض الآخر . فهو أحيانا يضيف أشياء لا يعرفها غيره في مصر .. وفي بقاع كثيرة من العالم . يضيف رماد الفرن مثلا .. ولكن ليس أى رماد .. فالرماد يختلف باختلاف المادة التى تخلف عنها . خشب الكافور ؟ البوص ؟ حطب القطن ؟ مصاصة القصب ؟

لكل مادة رمادها وما يحتويه من تراكيب كيماوية يعرفها الفنان العالم السيلكات والقلويات أساس الطلاءات الزجاجية التى تمنح الخزف بريقة البللورى . وهى تتوفر في رماد الاخشاب بنسب متغيرة . والفنان الاستاذ يعرف هذه المسائل بدقة .. فلا يترك للصدفة الا القليل النادر .

حين يسحب الصدر كتلة الطين من كيس النايلون يعرف من مجرد اللمس والضغط درجة جفافها .. ومدي صلاحيتها للابداع ، كل خلطة ولها أشكال .. ولا تصلح كل الخلطات لابداع كل الأشكال . هذا هو « فن الفن » .. أو « صناعة الفن » أو « سحر الفن » فقديما كانوا يسمون الكيمياء سحرا . وكانوا يسمون السحر فنا . والصنعة فنا أما الآن فهو تكنولوجيا الفن .

كما يختبر الموسيقى اوتار عودة قبل أن يبدأ التلحين والتنغيم .. وكما تدور الانغام في أذنيه قبل أن يلمس الاوتار ، تلح عليه تارة وتهرب منه تارة ، تتلاعب الاشكال في خيال الصدر قبل أن يجلس الى الدولاب بساعات . وربما أيام . تداعب عينيه وترتسم أمامهما في النوم واليقظة .

قد يوقف عربته فجأة الى جانب الطريق ليخرج ورقة وقلما يخطط شكلا يداعب خياله في تلك اللحظة ثم يرتبط الشكل باللون .. وبنوع الصلصال .. وبدرجة الحريق . وبنوع الوقود . كهرباء ؟ سولار ؟ خشب ؟ أي خشب ؟ وكيف تأتي الحرارة ؟ من خارج صندوق يخبيء فيه الأواني ؟ أم يرص الأواني علي رفوف في الفرن لتستحم بألسنة اللهب حتي تتوهج وتنصهر ؟



صحن من تصميم واخراج الفنان الصدر وهو منفذ بالألوان المعدنية ١٩٦٠
وهو من مقتنيات الفنان المرحوم محمود سعيد .

وكيف يمر اللهب من خلال الاوانى عبر الفتحات التى اتقن اعدادها ؟ كم يوما يستمر الحريق .. أو الخبيز ؟ كم يوما يستمر الفرن مغلقا بعد انجاز الحريق ؟ .. ربما ثلاثة أيام بلياليها .. يكاد الصدر خلالها الا ينام من فرط القلق والشوق الى معرفة النتائج . يبيت يحلم بأنه يتجول داخل الفرن وحول الاوانى . ينقر عليها تارة ويتأملها تارة وهى محمرة كعين الشمس . فبل أن تنحسر الحرارة رويدا رويدا .. فينحصر اللون الأحمر المتوهج كعين الشمس عن لالوان البارعة اللامعة . حمراء وخضراء وزرقاء .. برونزية أو فضية أو نحاسية .

ثم تظهر الاشكال والملامس والخطوط والاحجام . والفراغات والايقاعات . عالم بأسره من أبداع الفنان الاستاذ : سعيد الصدر .

لحظـــة إبـــــداع

حين يسحب سعيد الصدر كتل الصلصال من اكياس النايلون .. يلمس هذه .. ويغز تلك بأصبعه .. ويربت علي الثالثة .. ويشم الرابعة .. ويتأمل الخامسة .. ثم ينتقي ما يهفو اليها قلبه . وبينما يغني سيد درويش « أنا هويت وانتهيت » في الراديو في ركن المعمل .. يخلع الصدر قميصه ليلبس جلباب العمل ، ثم يجلس الي الدولاب كما يجلس الملك علي العرش . يدفع القرص السفلي بقدمه فيدور القرص العلوى . وتتحرك الراحتان الفنانتان في رقة وحزم ، حول كتلة الطين التي أستقر عليها الاختيار .

.. قد تتصايح الديكة وتقاتل ذكر البط خارج المعمل . وقد يحذر الخفير : عم أحمد طفلته من الاقتراب من بيت النار في الفرن القائم في الفناء . لكن سعيد الصدر لا يعير هذه الاصوات التفاتا . ولا زفيف الريح وزقزقة العصافير ونباح الكلاب .

انه في لحظة ابداع مع قطعة الطين .. يجرى عليها كفيه مرة .. ويبللهما بالماء مرة ، حتي تنزلق الاصابع والانامل في متعة من نوع خاص لا يعرفها سوى ساحر الاواني وعازف الانغام . حين يدندن علي أوتاره محتضنا عوده كأنما يبادله الصوق والعناق .

هكذا ينحني الصدر علي الصلصال فيتشكل بين أصابعه وكفيه . مستجيبا لسحر اللمسات . يستطيل تارة علي شكل أنية تبرز فوهتها من خلال قبضتيه .وينبعج تاره فتضيق الفوهة ويتكون الجسم كالثمرة الناضجة ..أن ينبطح وينبسط كالزهره في كامل تفتحها . وقرص الدورب اثناء هذا اللعب الفني يدور ويدور .. مسرعا متمهلا متوقفا .. مسرعا مرة أخرى والصدر بقدميه ويديه وكل جسده القوى . يتحكم في ضغط الراحتين والاصابع .. والانامل . يحركها جميعا كما يحرك العازف الماهر انامله علي الاوتار . قد يغمض عينيه في خلوص لعملية التشكيل واستمتاع بملمس الصلصال . الذى يتلاعب بين راحتيه كالكائن الحي . فيميل عليه أحينا يعيره أذنا مرهفة كأنما يلتقط همسه الرضا من الانية الوليدة . لكنه لا يسمع شيئا هذه المرة ، فيعود يدفع القرص بقدمه فيسرع القرض العلوى . ويعتدل الاستاذ في جلسته ليدك ما بناه ويعود الي خلق جديد . علي انغام الموسيقي المترامية من الراديو البعيد في طرف الورشه ، مختلطة بالآف الاواني المكدسة هنا وهناك .

وتنقضي ساعتان او ثلاثة . والصدر وحيد في ورشته مع الدولاب والصلصال وانية الماء حتي تلين عريكة الوحي المستعصي . وينبثق الالهام يملي معالم الشكل الجديد . فتستجيب العضلات الدقيقة في مفاصل الاصابع وراحة اليد . الي نداءات شقيقاتها الكبرى في اليدين والساقين وكل الجسد القوى . الذى امضي اربعة وستين ربيعا يبدع الجمال ويهتز لمراه . ثم يبدأ ميلاد الانية . اية فنية جديدة . تشمق بلونها الصلصالي اللامع . تضيق فوهتها كأنها تطبع قبلة علي كل عين تنظر اليها . ترتفع مخروطية قليلا وتنخفض ممتلئة في أنوثة غامرة ..



سلطانية من تصميم واخراج الفنان الصدر وهي من البورسلين السميك عام ١٩٣٢

..لقـد انجب الفنان أنية في نهاية الامر . بعد خمس ساعات أو ستة ، من العمل والعذاب . والمتعة التي لا تدانيها متعة . متعة القلق والابداع ثم يبدأ اعداد الفرن الذى ستزف اليه الانية لتصطلي بناره اياما حتي تنضج .. ثم يفتح باب الفرن لتخرج بلونها الازرق السماوى .. تتيه بجمالها في معارض الفنان . ربما في قلب القاهرة . وربما في موسكو .. لندن .. باريس .. كوبنهاجن . صوفيا .. وارسو ـ براتسلافا .. براج .. بكين .. طوكيو .. أو غيرها من عواصم العالم . فقلما تخلو عاصمة كبرى من تحفة ابدعها سعيد الصدر .. ساحر الاواني ..

.. أن ما اسهم به سعيد الصدر في فن الخزف ، ليس احياء محليا ، بل اضافة عالمية انسانية ، وادراكه لهذه الحقيقة ، حفظ عليه حماسه واستمراره عشرات السنين فهو يشعر دائما أنه صاحب رسالة للقرن العشرين .. عليه أن ينجزها لا يقلل من شأن هذه الرسالة قصور الاعلام عنها ، مما قد يدفعه احيانا الي ان يردد في لحظات القنوط : « انني لم احقق بعد .. ما جئت من أجله » .. « لقد أضعت حياتي سدى » .. فهو مؤمن في اعماقه رغم هذه الكلمات ، بأن جهوده لن تذهب هباء . والا كيف فاز بالجائزة الاولي علي خزافي العالم في المعرض الذى اقامته المنظمة الدولية للخزف في مدينة « كان » بفرنسا سنة ١٩٥٢ ؟ وبالجائزة الاولي والميدالية الذهبية علي خزافي العالم مرة اخرى في المعرض الذى اقامته نفس المنظمة في مدينة ـ براغ ـ عاصمة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٢ ؟ وكيف يسافر الي ـ كامبرا ـ عاصمة استراليا ، مستجيبا لرجاء كلية التكنولوجيا ، ليدرس لطلبتها برنامجا عن خزف الشرق الاوسط في العام الدراسي ٧٣ ـ ٧٤ ؟ وكيف يهيئون له اثناء هذه الفترة ورشة خاصة مجهزة بالخامات والادوات والمعدات ، يجرى فيها تجاربه .. ويبدع اوانيه الجديدة .. ؟؟

بدايـــة الطريـــق

سعيد الصدر .. داعية الي احياء فن عربي أصيل نسيه العرب منذ قرون .. ومبشر بقيم جديدة في فن الخزف العالمي .. ناضل من أجل ارسائها اثنين وأربعين عاما .. ساعده علي تحقيقها أنه عين مدرسا لفن الخزف في كلية الفنون التطبيقية منذ عودته من لندن سنة ١٩٣١ ، حتي أحيل الي المعاش في ١٣ / ١ / ١٩٦٩ . عميدا للكلية .. كانت وظيفته هي فنه ، مما منحه فرصة التفرغ لرسالته مدي الحياة . وما زال يحاضر ويشارك في الحركة الخزفية أكاديميا وابداعيا في مصر والخارج .. فضلا عن معمله الشهير بين أطلال مدينة الفسطاط ، والفواخير الشعبية ، حيث يعمل ليل نهار :

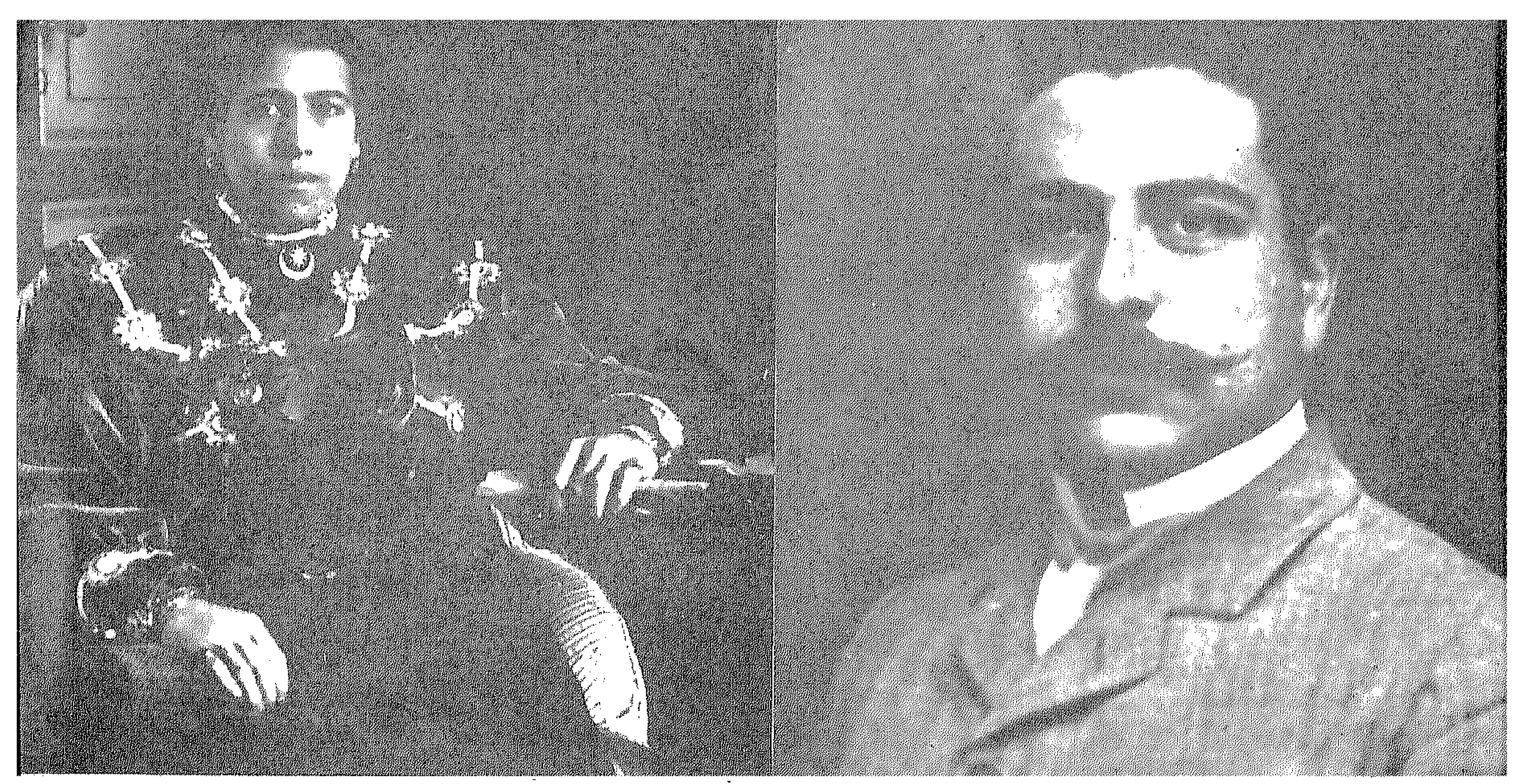
تخرج علي يدي الصدر عديد من التلاميذ ، نصادف ابداعهم واجتهاداتهم في مختلف المعارض المحلية والدولية .. لكن قلة منهم من نلمس في أوانيهم تعاليم الصدر ، فليس بينهم من يحمل الراية ، كما حملها الأستاذ عبر السنين ، الا أن القيم الفنية التي بشر بها الصدر ، راسخة في متاحف العالم والمجموعات الخاصة لجامعي التحف في أركان الدنيا .. ومسجلة في مؤلفات خاصة في لندن وموسكو ، فضلا عن مؤلفات الفنان سعيد نفسه .

لقد مضي الزمان الذي كان فيه الفنانون يظهرون .. ثم يرحلون محليا دون أن يشعر بهم كل البشر في هذا العالم ، فسواء أزدهر الفن الـ « سعيدي » في مصر أم لا ، وسواء انصرف الخزافون المصريون الي « فن الآنية الخزفية » . أو اتجهوا الي فنون النحت والتصوير والديكور والخزف التجاري .. ستبقي القيم الفنية التي أودعها الصدر الخزف المصري الحديث موضع الاحترام والاجلال .

اذا قال الصدر عن نفسه ، « لقد بدأت الطريق فحسب .. وأمل أن تتاح لي الفرصة لأحقق ما أريد » ـ كما يردد دائما ـ فهذا شأن كبار الفنانين وعمالقة الفكر .

فكلما عظم قدر الفنان استشعر التواضع وخاف أن يرحل وفي جعبته شيء لم يقدمه للناس .

هكذا نجد هذه العبارة المتواضعة علي شفتي فنان عظيم مثل الفرنسي بول سيزان ١٩٠٦ حين قال ، « لقد فتحت الباب فحسب » .. وكلنا نعرف الآن أن سيزان هو الأب الروحي والمادي لاتجاهات فن التصوير الحديث .



حامد أفندي الصدر والد الفنان سعيد الصدر .

السيدة بهية بشير خريجة المدرسة السنية والدة الفنان سعيد الصدر .

تبدأ قصة الفن مع سعيد الصدر من أيام الطفولة ، فقد ولد في الثالث عشر من يناير سنة ١٩٠٩ في منزل في حي الجمالية بالأزهر بالقاهرة . بين أسرة عربية الطابع ، فجده لوالدته سوري من حلب .. وجده لوالده من طولكرم . وفي أزقة حي الأزهر وسيدنا الحسين شب سعيد يكحل ناظريه بمظاهر الاحتفالات الدينية .. والمباني الاسلامية .. والمقاهي العربية .. ومطاعم الكباب والكشري والفول والطعمية والحلوانية .. بعرباتهم المضيئة في الليالي .. والبخور والشموع والمكاحل والنراجيل في خان الخليلي .

كل هذه المظاهر التي تدفع بقاياها الصور والذكريات في خيالنا هذه الأيام ، كانت تتفجر بالحيوية والأصالة .. في ذلك الحي العريق حيث شب الفنان الطفل ..

امتد الجو الفني الجمالي الى داخل البيت الذي نشأ فيه سعيد . كان والده يهوي التصوير الفوتوغرافي . اللعبة الجديدة في ذلك الزمان .. التي اجتذبت الكثيرين من المثقفين .. وقد أعد حامد الصدر ـ والد سعيد ـ كل مقومات الهواية ، من حجرة مظلمة وأدوات وأحماض . وكم سعد الطفل بصحبة والده في الغرفة المظلمة ، وكم راقبه عن كثب حتي يغادر المعمل ـ أو مطبخ البيت ـ فيبدأ في العبث بالأدوات والأوراق .

ومن جميل الصدف أن الأستاذ حامد كان واسع اصدر ، والرغبة في المعرفة .. بل أخذ يرعي فيه حاسة التذوق واتجاهات الابداع ، فأخذت المواهب بدورها تزدهر رويدا .. رويدا وتكشف عن كنوزها .

ثماني سنوات فقط .. كانت عمر الصغير سعيد في ذلك الوقت .. في نفس الفترة .. لاحظ الطفل أن صديقاً حميما لوالده يتردد علي البيت كل مساء ، كان شابا أنيقا فارع الطول .. أسمر الوجه .. داكن العينين .. طيب النظرات .. كان يتصفح حصاد الأمس من الصور الفوتوغرافية التي أعدها الأستاذ حامد .. ثم ينتقي من بينها بعض المناظر الطبيعية ليعيد تصويرها بألوان الباسيل علي أوراق خشنة . وكم راقب الطفل في اعجاب بالغ . هذا العمل المثير الذي يقوم به الضيف بين ليلة و أخري . وكم تناول الألوان بدوره بعد انصراف الضيف ، ليلون بعض المناظر الساذجة .

بقي أن تعرف أن هذا الصديق لم يكن سوي شيخ الفنانين ومصور الفلاحين . رائد التصوير المصري الحديث .. يوسف كامل الذي رحل عنا بعد أن أرسي دعائم الازدهار التشكيلي الذي نراه اليوم في كل مكان .. فقد كان زميلا لمحمود مختار صاحب نهضة مصر .. وراغب عياد رائد التعبيرية وأحمد صبري رائد الأكاديمية .. ومحمود سعيد ومحمد ناجي وغيرهم وكان يوسف كامل باحساسه المرهف قد استشعر شيئا في ارهاصات النهضة التشكيلية فشارك صديقه هاوي الفوتوغرافيا الاهتمام بطفله سعيد ذي البنية القوية . والعود المفتول .. والعيون المتطلعة المتلهفة .. والنشاط العامر المتفجر ، الذي يكشف عن طاقة هائلة لا تهمد .. وكان القدر قد قال كلمته .. وحدد للطفل طريقه .. ليلعب الدور المرسوم علي مسرح النهضة التشكيلية .. تقصد دور الخزاف .. ساحر الأواني .

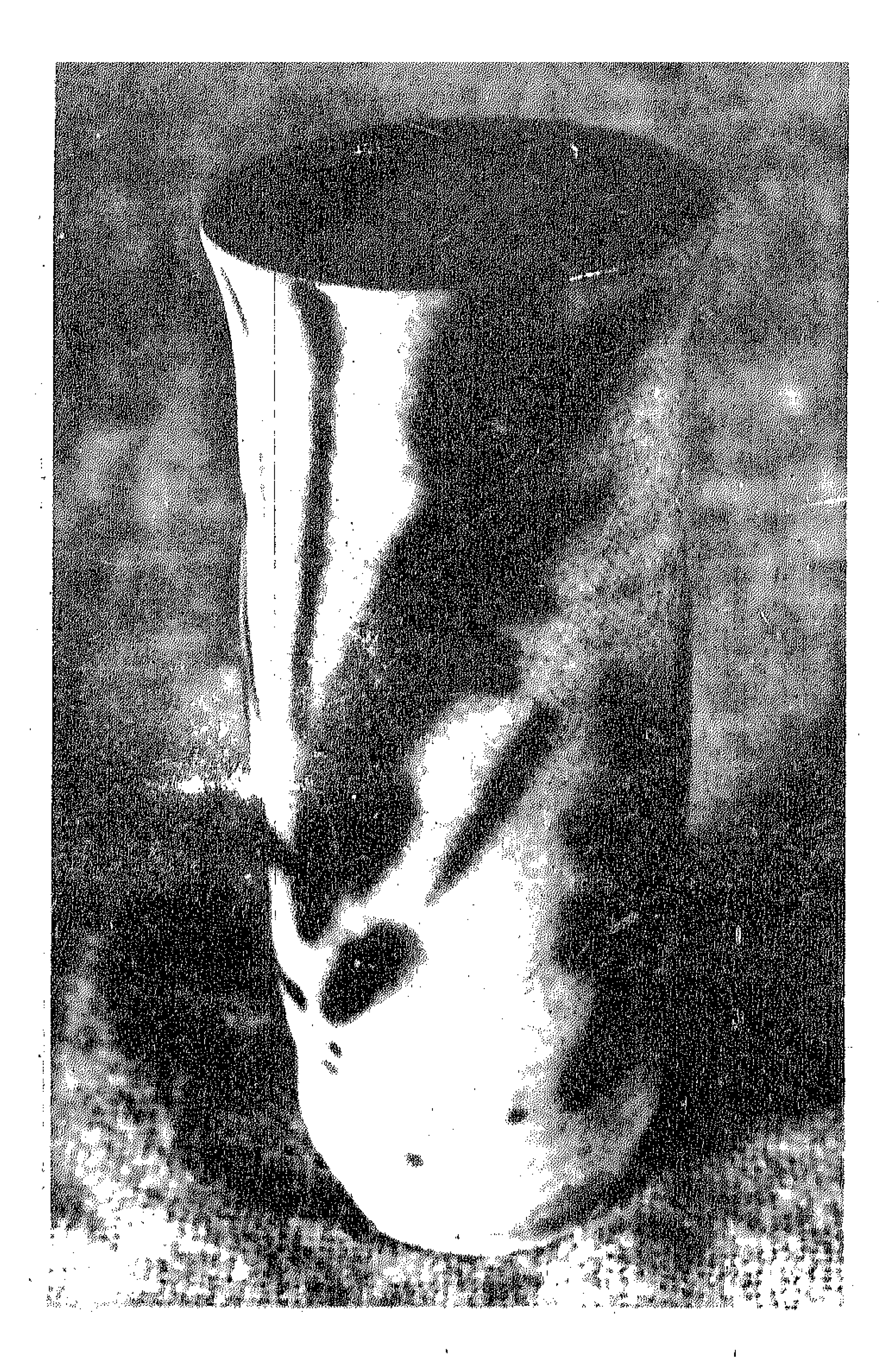
من باكورة أعمال الفنان الصغير ذي الأعوام الثمانية ، لوحة رسمها بألوان الباستيل مقلدا يوسف كامل صديق والده .. لم يتوقع الطفل أن تنال صورته اعجاب الوالد الي هذا الحد الذي يدفعه الي تثبيتها علي الجدار .. الا أن الأستاذ حامد كان واسع الأفق .. مرهف الحس ، وقد أحزنه كثير أن يسخر أحد الضيوف من رسم طفله في احدي المناسبات ، وأن يصفه بالعبث والشخبطة ..

ومما زاد في أساه أن لمح صغيره يتطلع الي شفتيه ينتظر ما يعلق به علي سخرية الضيف فلم يخذل الوالد ولده ورد السخرية الي صاحبها بأن قال له مبتسما ، هذا الفن الذي لا يروقك ، هو الفن الذي سيتخصص فيه ولدي سعيد في المستقبل .

ما زال سعيد الصدر الفنان الكبير .. ساحر الأواني . يذكر عبارة والده حتي الآن . يذكرها ويعتز بها ويعقب عليها ، لقد رسخت هذه الكلمات في أعماقي . وسرت في ضوئها . وكانت من العبارات القليلة التي هزت كياني ووجهت حياتي .

العبقرية التي تترك بصمتها علي عصر ما ليست كلها وليدة الصدفة صحيح أنها استعدادات أولية يولد بها الانسان ، لكنها تحتاج الي بيئة صالحة لازدهارها .

لذلك تهتم المؤسسات التربوية والعلمية العصرية بدراسة طرق الكشف عن المواهب



ورعاية الموهوبين فهذه الحضارة المذهلة التي نستمتع اليوم بعطاياها .. قدمها لنا أفراد معدودون من العباقرة . من بينهم ذلك الفلكي العملاق « كوبرنيق » .. الذي تتم رحلات الفضاء في ضوء مكتشفاته ، والذي احتفلت اليونسكو في الشهر الماضي بمرور خمسمائة عام علي وفاته ، فالعبقري حين يولد .. يشبه اللؤلؤة النادرة في بحر من الأعشاب والصخور والأصداف عديمة القيمة . يجب أن تتوافر مجموعة من الصدف السعيدة النادرة لكي تيسر للانسانية الحصول علي هذه اللؤلؤة الفريدة .. لتختصر من تخللها عشرات السنين .. وربما عشرات القرون .. وربما .. الي الأبد .

ويبدو أن المناخ المصري العام في النصف الأول من القرن العشرين ، كان مهيئا لظهور بعض الموهوبين في الفن التشكيلي ..فكانسعيد الصدر واحدا منهم .

طفولة عملاق

يقول كوكتو : ضع فكرة عادية في مكانها .. نظفها وجدد بريقها . إلق عليها ضوءا يلفت اليها النظر . فيجذب انتعاشها البصر .. ذلك الانتعاش الذي كانت تتصف به ، عندما نبعت من منبعها الأول – تجد نفسك وقد اخرجت عملا شاعريا ..

ويقول جان برتيليمى : الفنان الذى يريد لنفسه ان يكون أكثر الفنانين استقلالا ، لا يمكن الا ان يتلقى التأ[illegible] من غيره ، لانه مهما استقى من ينابيع فن آخر سيظل محتفظا بذاتيته . واقل الفنانين فنا صحيحا هو الذى يخاف هذه التأثيرات .

اود أن أهدى هذه العبارات الى هؤلاء الذين يعيبون على الصدر انه متأثر بالخزف الاسلامى .. بل يقلده .. واترك الكلمة للفنان الكبير حيث يقول : « لعلهم لا يعلمون ان الفنانين في عصر النهضة الخزفية الاسلامية الكبرى من القرن العاشر الميلادى الى الثانى عشر ، لم يكن بينهم خزافون على الاطلاق ، بل كانوا مصورين ومزخرفين ورسامين على الخزف . فالفنان الخزاف هو الذى تولى الصلصال من الألف لى الياء ، من أول تفتيته الى مسحوق . الى نقعه وعجنه وتصفيته واضافة المواد المختلفة التى تتفق ونوع الصلصال المطلوب والهدف المراد تشكيله ثم متابعة العمليات التفصيلية والمعقدة حتى تخرج الانية من الفرن للمرة الأخيرة . الخزاف بهذا المعنى لم يكن موجودا في ازهى عصور الخزف الاسلامى . فاذا رفعنا الرسوم الفاتنة والالوان الساحرة من فوق الخزف الإسلامى .. لاصبح عديم القيمة . »

مع ذلك .. فالصدر يفخر بأنه تتلمذ على سعد .. ومسلم .. وغيبى .. وشيخ الصنعة .. وتعلم الكثير من كل من ضرب بفرشاته على انية اسلامية حتى عصر الذروة .. عصر المماليك ، ويخص بالذكر التأثيرات العميقة التى تركت بصماتها على فنه من كل من سعد ومسلم ، اللذين قدما لمتاحف العالم أروع ما ظهر في تاريخ الخزف الاسلامى من زخارف مناسبة لتشكيلات مختلف الأوانى ، ووضعا أجمل الأسس لتزاوج الالوان وتآلفها وتباينها وتنظيمها .. بالاضافة الى تراكيبها الكيميائية المستخرجة من أرض البلاد ، دون أن يستوردا شيئا من الخارج . لقد قدما أنواع من البريق المعدنى ، ونماذج من أرشق الوحدات « الموتيفات » الزخرفية والتصويرية النابعة من الاسقاط الفورى الذى استطاعا به أن يلتقطا ادق وابسط وأقل الخطوط ، لاظهار مفاتن الطير والزهر والحيوان .. فبضربة ريشة واحدة يرتسم الطير .. وبضربتين .. تتحقق الحركة سواء رسما بالذهب الخالص .. أو بألوان الطين .. أى البطانات .

يعتز الصدر بأنه تعلم جمال الرسم والتصوير في أوانى سعد ومسلم . ولنا عودة الى ما يتسم به ابداع الصدر من خصوبة .. وعطاء .. وفتنة .. وجمال .. وذاتية .

والآن .. الى طفولة العملاق .. مرة أخرى .

كان « حامد افندى الصدر » .. والد سعيد .. صدفة سعيدة لعبقرية الطفل الصغير .. ويبدو انه كان محبا للأطفال بوجه عام ، فقد انجب ثمانية .. خمسة ذكور وثلاث اناث . ويحمل سعيد رقم اثنين في هذه السلسلة . وكان حامد افندى رقيقا مهذبا متفتح الذهن .. يوجه أولاده جميعا الى التعليم ، فليس بينهم من لم يصل بدارسته الى منتهاها .

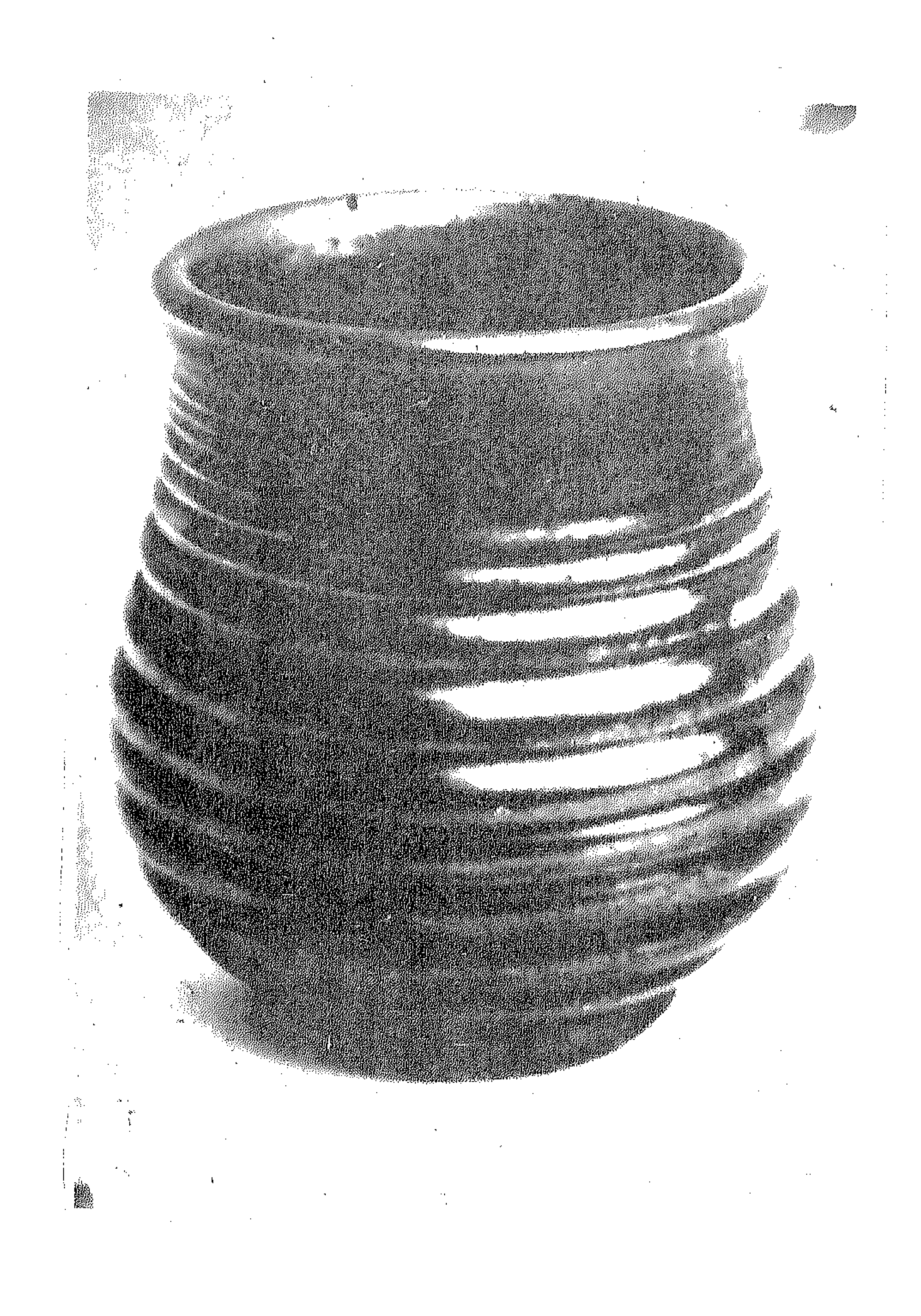
البنات الى المعلمات .. والصبيان الى الحربية .. أو الحقوق .. أو الفنون .. أو الهندسة ، كل وفق هواه .. حدث ذلك في زمن لم يكن فيه الاهتمام بالتعليم قد بلغ هذه الدرجة الخطيرة التى نراها اليوم ، اذ كانت الشهادة الابتدائية كافية للحصول على وظيفة ذات أجر معقول .. وفي مقابل هذه الاعباء الاقتصادية ، لم يكن يتقاضى رب الأسرة سوى مرتب رئيس قسم الاعيان بوزارة الاوقاف .. وهو موظف متوسط الدخل . وكان عفا امينا .. شأن معظم المثقفين ، فلا عقارات أو عمارات أو افدنة ، بل كان يتمتع بالسترطوال حياته ، ولم يترك بعد رحيله سوى جنيهات قليلة وجدت في جيبه رغم انه رحل في اوائل الشهر من يوليو سنة ١٩٣٦ .

من جميل الصدف أن يكون والد المرء والدا روحيا في نفس الوقت هكذا كان والد سعيد الصدر . واسع الاطلاع .. متشعب الهوايات .

على ثقافة فرنسية كمعظم المثقفين انذاك .. يترجم المسرحيات ثم يعربها ويضيف اليها اشعارا من تأليفه .. يستقبل في بيته رائد المسرح المصرى .. جورج أبيض ، أما هواياته المفضلة ، فكانت التصوير الفوتوغرافى دائما . ورغم تعدد الهوايات والاجواء الفنية التى غمرت حياة الاسرة لم يسمح الاستاذ حامد للعمل الوظيفى ان يطغى على وقت فراغه فاذا اضطر الى اكمال بعض الحسابات والتقارير في مكان غير الديوان ، فلا بأس بعد الفراغ من هواياته الفنية ، ولو سهر الى مطلع الفجر واحرق عشرات السجائر .. وشرب عدة فناجين من الشاى والقهوة .

أما السيدة بهية بشير سيدة الدار فكانت بدورها على حظ وافر من التعليم بالنسبة للنساء في ذلك العصر . فقد تخرجت في المدرسة السنية « تناظرها كلية البنات الآن » ، وكانت تجيد الانجليزية الى الحد الذى سمح لها بمرآجعة دروس ابنائها حتى مرحلة الثانوية العامة .

وفي عام ١٩١٥ .. والطفل سعيد يجتاز عامة السادس بتفتح واذدهار ، حث ان أصيبت عينه اليسرى برمد اضطر الأسرة الى احضار الطبيب . وبعد علاج دام عدة أيام ، شفى الطفل وانطلق يجرى هنا وهناك ، مما أوحى للجميع ان الأمر قد انتهى الى خير . لكن .. لوحظ فيما بعد ، ان أسعد يغمض عينه اليسرى كلما أراد ان يتأمل شيئا .. وحين عرض الأمر على طبيب المانى زائر ، أفاد بأن العين . نسيت وظيفتها لكثرة اغماضها والاعتماد على العين الأخرى ،



انية من الخزف الحجري تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٤٥
من مقتنيات متحف الفن الحديث بالقاهرة .

ونصح بأن نخفى العين اليمنى بعصابة سوداء ليبدأ تدريب العين اليسرى على الرؤية من جديد . وواجه سعيد الامرين في هذه التجربة . كان يصاب بالصداع والدوار حتى يفقد اتزانه ويسقط على الأرض . فازال العصابة . وانطلق في الحياة .. بدون احدى الجوهرتين .. اللتين لا يمكن لجواهر العالم أجمع ان تحل محلها ..

هكذا فقد العبقرى احدى عينيه .. لكن مثل هذه الاحداث لا تؤثر في مسيرة العناصر القوية . التى جاءت الى الدنيا وفي يدها قلم .. تسجل به صفحة كاملة في سفر التاريخ .. الذى لا تنتهى صفحاته ..

■ استوديـو عبــــاده

.. ثمة نوع خاص من العلاقة ، بدأ ينمو بين الطفل رقم ٢ .. سعيد وبين والده حامد أفندى . وبعد أن انتقل بيت العائلة من حى الأزهر الى السكاكينى سنة ١٩١٧ ، اعتاد الأب ان يصحب الابن بأعوامه الثمانية ، الى قاعات العرض الفنية الخاصة بالجمعيات أو الأفراد . وبين أمسية وأخرى ، وجد الطفل نفسه يتردد على المعارض التى تنظمها جمعية محبى الفنون الجميلة ، اما في مقرها بشارع « فؤاد الأول » أمام « المحكمة المختلطة » ، أو في قاعات خاصة بشارع « ابراهيم باشا » . ولا ينسي سعيد الصدر اللوحة الزيتية الكبيرة التي شاهدها سنة ١٩١٩ أثناء الثورة المصرية الأولي ، وكان يظهر فيها الزعيم سعد زغلول في أحد الاجتماعات الوطنية الصاخبة .

هكذا بدأ حامد الصدر والد سعيد .. يؤكد بصمته على حياة الطفل يوماً بعد يوم .

وفي أحد الأمسيات أقبل على البيت ضيف جديد ، رقيق الحاشية وسيم الملامح حليق الوجه .. ينبت الى عنقه رباطا أسود كبيرا يتدلى على صدره شان خريجى مدرسة الفنون الجميلة في ذلك الوقت .. أقبل يحمل حقيبة ثقيلة بها أدوات ولفائف ، أخذ يبسطها وينظمها ثم استخرج محتوياتها ، واذا بكتلة من الصلصال اللين يتناولها الضيف ثم يضعها على منضدة ويثبتها بعصى خشبية واسلاك ، ويقيم من ذلك كله شيئا لم يدركه الطفل سعيد وهو يرقب الأمر من بعيد . وسرعان ما جلس حامد أفندى أمام الضيف .. وسرعان أيضا ما تسلل الطفل الى داخل الحجرة ، وهو الذى لا يفارق والده أبدا خصوصا في تلك الأمسيات وبينما تزداد عينا الطفل اتساعا .. ووالده يطمئنه ببسمة بين وقت وآخر ، بدأ الطين يشكل تمثالا .. فلم يكن ذلك الضيف سوى الفنان توفيق عبادة ، المصور الفوتوغرافي والنحات زميل محمود مختار ، وصديق المصور أحمد صبرى الذى صوره في احدى لوحاته الشهيرة . صحيح ان أحدا لا يذكره الآن . لكن حان الوقت لنعرف أنه ترك بصمته بدوره على حياة الفنان سعيد الصدر .

كان سعيد وشقيقه الأكبر بديع ، يرقبان عملية التشكيل والابداع .. وفي المساء .. أخذ توفيق أفندى يلف التمثال بعناية بقماش مبلول حتى يبقى الطين رطبا لليوم التالى . لكن .. من ذا الذى سيترك التمثال في حاله الى اليوم التالى . ما كان الوالد ليودع ضيفه وينصرف الى بعض شئونه ، حتى يبدأ الطفلان العمل . يرفعان الأغطية عن التمثال الناقص . ثم يتحسسان بأيديهما الطفلة ملامح الوجه والرأس في انبهار ودهشة ، فلا ينتهى فضولهما الا بافساد التفاصيل وفي اليوم التالى كان الضيف يبدأ من جديد . كما تفعل النملة التى تفلت حبة القمح كلما اقتربت بها من العش ..

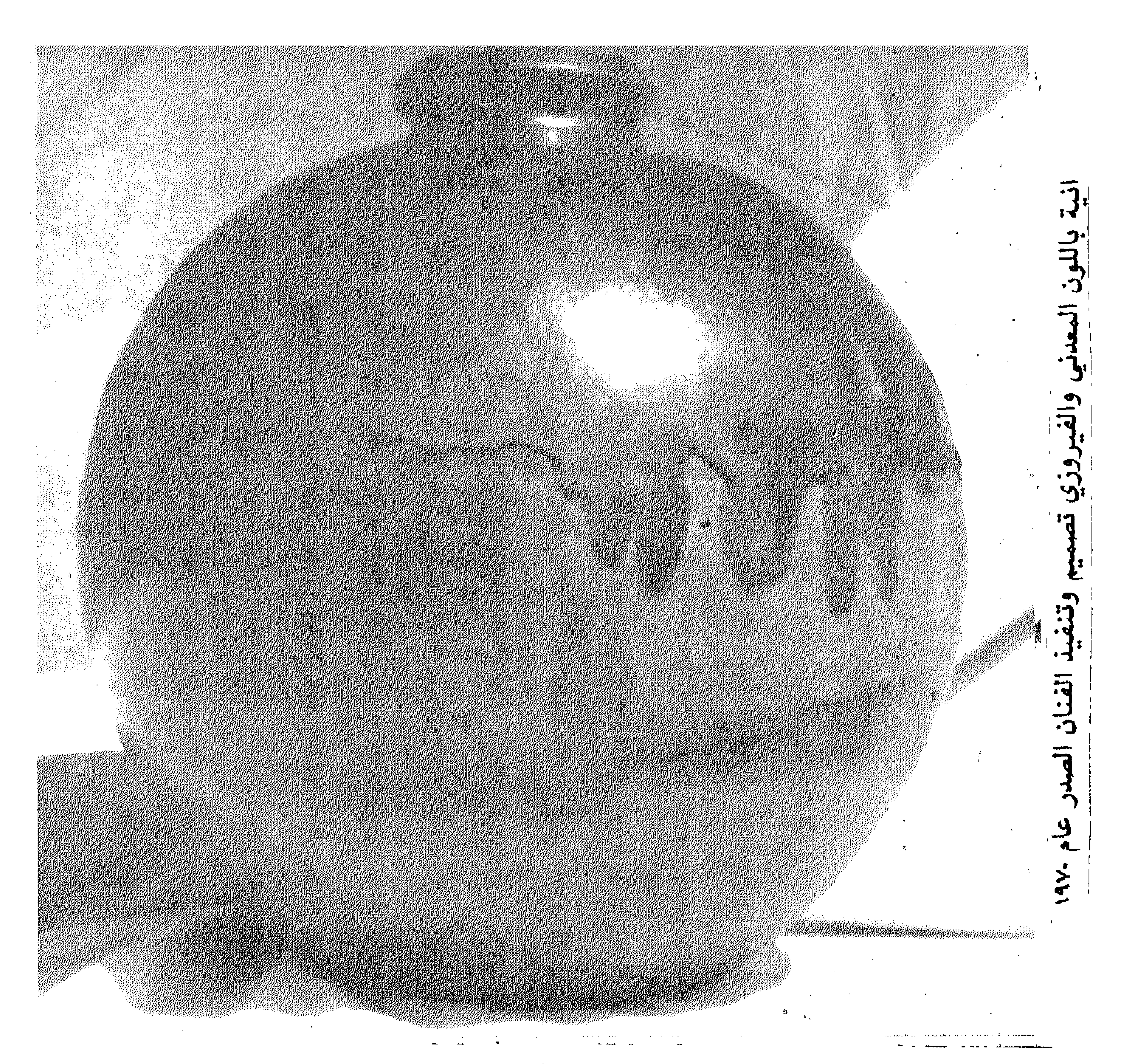
لم يغضب الوالد أو صديقه من عبث الطفلين .. بل اتفقا على أن يرسلهما الأستاذ حامد يوميا في فصل الصيف الى ستوديو عبادة الذى كان في شارع ابراهيم باشا في ذلك الوقت .. وفي كل صباح .. سيرا على الأقدام .. ذراعا في ذراع .. ينطلق الطفلان من حى السكاكينى الى شارع ابراهيم باشا حيث يتلقفهما الفنان توفيق عبادة .. وأجهزة التصوير الفوتوغرافي وأدوات وخامات النحت والرسم . كان يوزع عليهما أوراق الكرتون المضغوط ترتسم عليها بالبارز وجوه رومانية وشخصيات أسطورية يونانية . يطلب منهما نقلها وتلوينها .. كما كان يوزع عليهما أحيانا مجموعات من الصور الفوتوغرافية الجميلة يقضيان الوقت في تأملها واللعب بها وكثيرا ما كان يصحبهما الى الغرفة المظلمة يرقبان عمليات التحميض والطبع . بينما يغمرهما ضوء أحمر فيسبحان في عالم من الأحلام .

استمرأ الطفل سعيد تلك الأجواء الجديدة في ستوديو عبادة . أما بديع ـ الشقيق الأكبر ، فقد فضل لعب الكرة مع رفاقه ـ واعتاد أن يترك سعيدا في الاستوديو حتى يعود اليه في الثانية بعد الظهر وكأنهما كانا معا طوال الوقت . لم يكن غريبا بعد ذلك أن ينخرط بديع في سلك الجندية ويتدرج فيها الى رتبة اللواء وأن يتجه سعيد الى الفنون ليصبح رائد فن الخزف المصرى المعاصر ومشاركا في تقدم الحركة العالمية لفن الخزف .

كان سعيد في ذلك الوقت يتخطى السنة الثامنة من عمره .. وكان القدر يعده لرسالته بتهيئة الظروف المناسبة . بعد أن أعده ببنية قوية تناسب ما ينتظره من عمل شاق مدى الحياة . فقد حدث أيضا في تلك الأيام أن صحبه والده الى دكان ملء الكراسى الخيزران ، فتعلم الحرفة واهتم بها لولا أنها ألمت أنامله الغضة وانصرف عنها .. ولكن بعد أن تدربت هذه الأنامل الطفلة على الحساسية التى تحتاجها أعمال التشكيل الخزفي فيما بعد . فكان كالقط الصغير الذى يلعب بخيوط الصوف وكل ما يصادفه من أشياء . وهو في واقع الأمر يكتسب مهارات المستقبل استعدادا للقتال واقتناص الفرائس .

نحس في هذا النوع من الاعداد العفوى الذى أكسب الطفل بعض المهارات الأساسية . نحس فيه شيئا من نظام « الصبينة » الذى كان يسود عصر النهضة الايطالية والذى أسفر عن مجموعة كبيرة من العباقرة في عصر واحد . لقد تعلم الصغير سعيد الصبر ودقة العمل من ملء الكراسى .. والاحساس الفنى من الرسم والتلوين .. والتذوق من مراقبة والده وتوفيق عبادة .. ثم علاقة الخامات بالأجهزة بالنتيجة الفنية . من التصوير الفوتوغرافي . وكلها أوليات يجدر بالفنان الخزاف أن يتحلى بها .

الا أن التصوير الفوتوغرافي أصبح هوايته المفضلة بعد الخزف . وله لوحات شيقة . هو الذى التقطها وأجرى عليها جميع الخطوات الفنية والحيل التكنيكية . فهو مصور فوتوغرافي وسينمائى .. سجل اطلال الفسطاط على أفلام ملونة ٨ .م .. فلو تأملنا تلك التجارب التى اعترضت طريق الطفل وفرضت نفسها عليه منذ نعومة أظفاره . لأدهشنا انها جميعا كانت



انية باللون المعدني والفيروزي تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٧٠

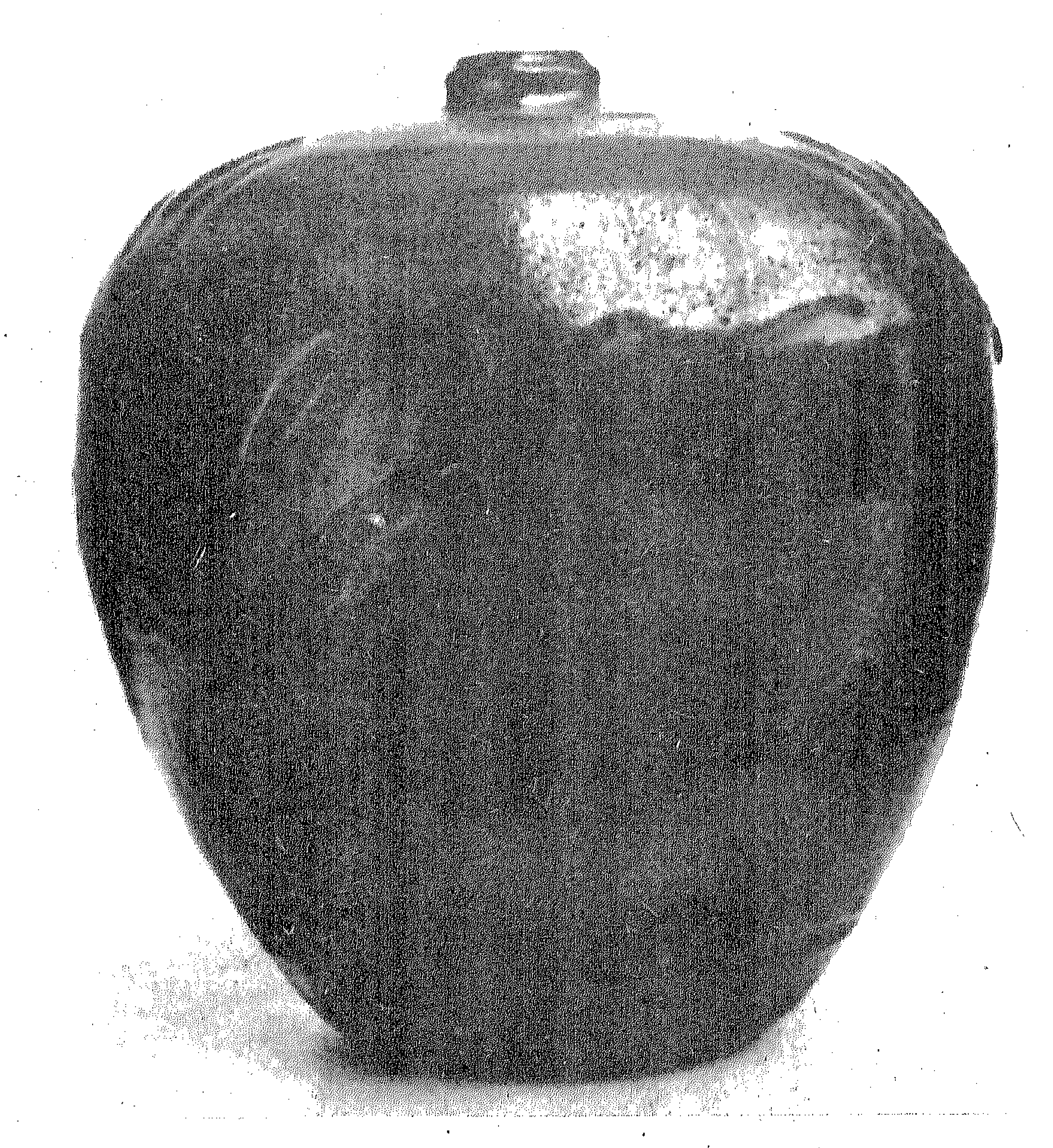
تسهم في اعداده للدور الكبير الذى كتب عليه أن يلعبه على مسرح الفن التشكيلى في مصر في القرن العشرين .. كأنما كان هناك مخرج خفى يدبر الأمر باحكام .

نعود فنشير الى أن الصور الفوتوغرافية التى فتح الصدر عينيه على مشاهدها الخلابة بين يدى والده حامد الصدر ، زرعت في نفسه الاحساس بجمال الأشياء حين تغمرها الأضواء بتوزيعات خاصة ، وهذه صفة يحتاجها الخزاف حين تنبثق الأنية بين يديه فوق الدولاب . فالأضواء والظلال قرينة الأحجام والارتفاعات والانخفاضات والملامس . أما ألوان الباستيل التى طالما عنت فوق لوحات رائد التأثيريين المصريين ـ يوسف كامل ـ فمنحت مزاج الطفل القدرة على ابداع الألوان والتفريق بين درجاتها ومراعاة التالفات الدقيقة التباينات الرقيقة التى لا يشعر بها الا كل من أوتى ارهافا في الحس . كما زودته بالقدرة على ابتكار النظم اللونية الفاتنة التى نراها اليوم على خزفياته ، كالفيروزى والأحمر المعدنى الذى ظهر في أخر معارضة ـ يونيو ١٩٧٣ ـ وهو نظام لونى لم يسبق له أن ظهر على أنية من قبل . ثم تماثيل توفيق عبادة التى أكسبته القدرة على الاحساس بالاستقرار والتوازن بين الكتلة والفراغ .. والخطوط الخارجية التى تلعب أخطر الأدوار في فن النحت وفن الخزف على السواء . فليس « فن الأنية » سوى شكل « فورم » وخامة وزخارف وتصوير وما يربط بينها جميعا من علاقات مهموسة لا يدركها الا عبقرى موهوب مثل سعيد الصدر .

■ بدأت الرواية .. والصدر في الطريق

أستأذنك في أن اقطع حلو الحديث عن طفولة الفنان وصباه ، لكي اصف لك المسرح الذى ظهر عليه سنة ١٩٣١ ليشارك في ملحمة النهضة الفنية التي انطلقت شرارتها من ثورة ١٩١٩ . حيث كان سيد درويش يطوف الشوارع بالحنطور ، منشدا بصوته الاجش : بلادى بلادى .. لك حبي وفؤادى .

كان سعيد الصدر آنذاك في العاشرة من عمره يتأمل لوحة زيتية كبرى للزعيم سعد زغلول يخطب الجماهير . وكان محمود مختار في فرنسا ينحت تمثالا لنهضة مصر استعدادا للفوز بالجائزة الاولي في صالون باريس سنة ١٩٢٠ ، وكان يوسف كامل في طريقه الي ايطاليا سنة ١٩٢٢ لدراسة فن التصوير بينما زميله راغب عياد يقوم بعمله في القاهرة ويرسل له مرتبه في اول كل شهر ، ليتبادل معه التضحية فيما بعد . وكان مسرح الاحداث يضج بأجمل الكلمات التي تنطلق من أقلام الشعراء والكتاب ومن شفاه الممثلين والمغنين .وصحيح ان الرواية بدأت قبل ان يشارك الصدر في احداثها لكن دوره لم يتأخر كثيرا علي اى حال . ففي عام ١٩٢٨ اقام مختار تمثاله في ميدان باب الحديد . وفي عام ١٩٢٩ عاد يوسف كامل من روما ليبدأ ريادة فن التصوير الحديث . وتبعه سعيد الصدر من لندن سنة ١٩٣١ ليبدأ رسالته الخزفية . ثلاثتهم دخلوا المسرح علي التوالي . واذا كان تمثال نهضة مصر أول تمثال اقيم في مصر بعد عصر الفراعنة . فأواني الصدر التي أبدعها في مدرسة الفنون التطبيقية . هي أول خزف فني بعد ثلاثة قرون مضت « أنظر مجلة الفنون ـ العدد ٣ سنة ١٩٧١ » من هنا نرى أن تماثيل مختار واواني سعيد ولوحات يوسف كامل وزملائه . بدأت مهمة بعث الفن التشكيلي ومواكبة النهضة الفنية في ميادين الشعر والادب والمسرح والموسيقي . الجميع كانوا فرسانا في كتيبة واحدة ترفع اعلام الفن المصرى الحديث .. واذا كنا نجد في لوحات يوسف كامل استلهاما لما شاهده في أوروبا من لوحات التأثيريين . وفي تماثيل مختار تأثرا بأوجست رودان النحات الفرنسي الرومانسي « ١٨٤٠ ـ ١٩١٧ » وفي لوحات احمد صبرى اكاديمية تقليدية لا تخفي علي عين .. فقد انفرد سعيد الصدر بمهمة الكشف عن التراث الخزفي الفرعوني والاسلامي .. ثم اضافة المزيد . هكذا طبعت اوانيه بأشكال احجامها من خزف البدارى . وبتصاويرها وزخارفها من الخزف الاسلامي . مضافا اليها لمسات سعيدية مستمدة من انفاس هذا الشعب ووجدانه .. في القرن العشرين ..



آنية من الخزف الحجري تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٣٠

من مقتنيات متحف الفن الحديث بالقاهرة

كان الصدر عضوا هاما في الجيل الاول من التشكيليين وان كان بعض الباحثين يفضلون استبعاده مشيرين الي مولده في عام ١٩٠٩ . بينما الباقون ولدوا قبل فجر القرن . فالاجيال لا تحدد بفارق من عشر سنوات أو نحوها . أنه شارك فعلا وفي نفس الوقت كما ذكرنا آنفا . وظل مكانه شاغرا علي مسرح الاحداث لم يسبقه احد الي دور الخزاف .. ساحر الأواني ولكي نستكمل الصورة تماما .. فلنذهب معا في جولة خلف الكواليس لنرى أن الاتجاهات الخزفية قبل ظهور الصدر لم تكن فنية علي الاطلاق . بل صناعية تجارية تستهدف انتاج احتياجات الحياة اليومية . واذا كان ثمة محاولة للانتاج الفني . فقد كانت فجة للغاية لم تستكمل اسباب النجاح .



بعد الفتح العثماني في الربع الاول من القرن السادس عشر حوصرت الثقافة المصرية واهملت قرونا طويلة تحول الخزف فيها الي أشكال هزيلة من الازيار والقلل والبلاليص والمواجير واستمر الحال الي ما بعد منتصف القرن التاسع عشر حين اتخذت الحكومة المصرية مبادرة جادة سنة ١٨٦٤ لاستعادة امجاد صناعة الخزف ولا نقول فن الخزف . لان الهدف كان تصنيع البورسلين او الصيني وبدأت القصة بأن استدعت الحكومة خبيرا انجليزيا من اصل فرنسي ـ وكان خزافا شهيرا في نفس الوقت ـ اسمه : وليم دى مورجان . وكلفته ببحث مدى توفر الطينات والخامات الصالحة لانتاج البورسلين . استعان دى مورجان بمجموعة من الكيماويين بينهم د . ماكنزى ولفيف من ضباط الشرطة لتيسير مهمة التجول والتنقيب . ومجموعة منتقاة من العمال المصريين الفنيين . ما زال أحفادهم يعملون بحرفة الفخار والخزف حتي الآن بناحية الفسطاط بالقاهرة . وتناولت ابحاث فرقة دى مورجان جميع نوعيات الطينات المصرية ابتداء من الاسكندرية الي ما بعد اسوان . وكانت العينات تفحص بدقة من الناحية الكيماوية وقابلية التطويع . وما ان انهي الخبير ابحاثه حتي اصطحبها الي لندن لدراستها ثم أرسل تقريرا لوزير الاشغال المصرى بعنوان : « امكانية الخزف المطلي في مصر وقد حفلت عشرات الصفحات التي تألف منها البحث بالعديد من التجارب والتحاليل الكيماوية التي اسفرت في النهاية عن استحالة انتاج البورسلين في رأى دى مورجان .


صحن من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٦٥ متأثرة بالاسلامي القديم

ولقصة ذلك الخبير الخزاف بقية طريفة يجدر بنا ان نستكملها . فقد عاد الي وطنه انجلترا متأثرا بما شاهده من روائع الخزف الاسلامي وخاصة البريق المعدني الذى لم يكن قد رآه من قبل . ولم يكف عن البحث بعد عودته حتي تحقق له ابداع الاواني بهذه الطريقة . وممن شاهدو انتاجه واعجبوا به صديقه المصور الشهير ، لورد ليتون فكلفه بابداع مجموعة من ترابيع القاشاني ليزين بها جدران منزله ، حيث يقتني نماذج فاخرة من تحف الفن الاسلامي الاصيل كالمشربيات والمقاعد والبرفانات . وبعد وفاة الفنانين دى مورجان ولورد ليتون حولت الحكومة البريطانية بيت ليتون الي متحف زودته بمجموعات من أواني دى مورجان ذات البريق المعدني ، فأصبح البيت مزارا سياحيا في لندن بعيد الي الاذهان بيت السحيمي بالقاهرة .

ولم يترك الصدر هذه الابحاث التاريخية والتجارب السابقة تمر دون اهتمام خاص ، وهو الذى جاء ليلعب دورا في تطور الخزف المصرى المصرية القديمة . أو الاسلامية .. أو استكمالا للعصور السابقة سواء عصور الاضمحلال . فلما التقي بتقرير دى مورجان في احدى مكتبات لندن لم يكن قد تجاوز الواحد وعشرين ربيعا . لكنه كان علي درجة رفيعة من الوعي شأن اصحاب الرسالات . ولما فشل في استعارة التقرير من المكتبة ، أرسل لوالده يسأله ان يبحث عنه في مكان ما بمصر ..وكان..

ثلاث دقات .. ثم رفع الستار

ثلاث دقات .. ثم فتح الستار كان الفتى سعيد في لندن حين تسلم رسالة والده ، وبها تقرير وليام دى مورجان ، الخزاف الشهير والخبير الذى فحص التربة المصرية .. من الاسكندرية الى ما بعد أسوان ، لم يهدأ بال الفتى قبل أن يتسلم اخبار دى مورجان في لندن . وتعقب اثاره حتى علم بقصة متحف ليتون فزاره وفحص الأوانى ذات البريق المعدنى التى أبدعها في لندن بعد عودته من مصر . ثم زار أسرة دى مورجان فاحتفى به احفاده بكرم بالغ وسعدوا بصحبته يوما كاملا باعتباره من البلاد التى زارها جدهم وعشق فنونها .

كم استفاد المصور من تجربة دى مورجان رغم انها لم تصل الى نتائج ايجابية بالنسبة لاستخدام التربة المصرية في صناعة البورسلين فقد وفرت عليه اجراء أبحاث مماثلة كان حريا به أن ينجزها لو لم سبقه اليها ذلك الخبير الانجليزي . وحين شاهد ما أبدعه دي موجان من الخزف المعدني . أدرك أن عليه أن يبدع أوانيه من تربة بلاده . مصر .. وستري فيما بعد كيف عمل بالطينات المصرية في قلب لندن وفي استوديو ليتش نفسه .

ولكن اذا كان الخزاف الانجليزى قد افاد باستحالة انتاج الورسلين من التربة المصرية ، فقد جاء من بعده رجل ايطالى أكثر طموحا من السنيور سورناجا .. استطاع ان ينتج البورسلين . شيد مصنعا ضخما في منطقة الصف بجنوب الجيزة في مكان يسمى « الودى » ، ما زال موجودا حتى الآن . تمكن المصنع من انتاج الادوات الصحية وقوالب الطوب والمواسير وبعض أدوات الاستخدام اليومى . فكانت أول محاولة ناجحة لانتاج الخزف الصناعى . أى الخزف الذى ينتج للأغراض النفعية المادية وليس للاغراض الفنية الجمالية والمتعة الروحية . الا ان سورناجا كان يتطلع الى ابداع الخزف الفنى ذى الطابع العربى . فاستخدام نخبة من العمال المهرة من أهل الناحية تحت امرة بعض الاسطوات وكبار السن من المعلمين الذين كان يجلبهم من فواخير الفسطاط . وقد تمكن سورناجا بالفعل في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ان يقدم للحركة الفنية بعض ترابيع القاشانى والاطباق والاوانى ذات الزخارف العربية المنقولة نقل مسطرة عن الامشق الاسلامية . مما يدعونا الى الاقلال من قيمتها الفنية . لان الابتكار أو الابداع هو الصفة الاساسية التى يقوم عليها اى فن من الفنون . لكن أوانى سورناجا وخزفياته كانت من الطابع السطحى الذى يوحى بالاساليب الشرقية وبريق لاعين السائحين الأجانب .



آنية من الخزف الحجري تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٤٥

قامت مجموعة من المحاولات اذا لانتاج الخزف الفنى ، بعضها من قبل الدولة والبعض الاخر من قبل الأفراد لكنها جميعا لم تظفر بالنجاح المرجو . كانت مجرد ارهاصات كأنها دقات المسرح تمهد لفتح الستار .

مع ذلك . قامت ثمة محاولة جديرة بالتسجيل ، لانها رغم سذاجتها انطوت على رغبة حقيقية في الا بداع الخزفى . جرت تلك المحاولة على يدى هدى شعراوى . السيدةو التى عرفت أنذاك بحبها للفنون وتشجيعها للادباء والفنانين . كان منزلها صالونا يتعارف فيه الفنانون برجال السياسة والصحافة وأصحاب النفوذ . وكم عاونت ماديا كل من لمست فيه نزعة فنية أصيلة مثل النحات الكبير عبد البديع عبد الحي الذي ما زال يمد الحركة التشكيلية المصرية بالمزيد من الروائع .

يعتبر « مصنع الهدى » الذى شيدته السيدة حوالى عام ١٩٢٧ ، نموذجا للمحاولات الفردية الجادة في سبيل الخزف الفنى . الذى اختارت مكانه في منطقة روض الفرج على النيل بجوار المسارح التى كان يغص بها الشاطىء . وأيضا . بجوار مصنع مارانجاكيس اليونانى الذى ينتج الأوانى الفخارية كالزلع والمواجير ونحوها من أدوات الاستعمال اليومى التى كانت منتشرة في ذلك الزمان . وكانت الأخرى « بمصنع الهدى » أن يسمى « مرسم الهدى » لأن كل ما كان يجرى فيه هو عمليات رسم على الأوانى الفخارية الجاهزة .

بدأت القصة بأن التقت هدى شعراوى بمدرس الزخرفة الفرنسى الذى كان يعمل بمدرسة الفنون الجميلة بشارع درب الجماميز . كان المدرس الفرنسى يهوى الزخارف العربية مما صادف قبولا لدى هدى شعراوى فاتفق معها على ان تشيد هذا المصنع وتزوده بالأوانى الفخارية من مصنع مارانجاكيس ثم يتولى هو وبعض المساعدين رسم زخارف عربية جميلة مستخدمين الوان الزيت . الا ان هذه العملية كانت ابعد ما تكون عن فن الخزف . فاستقر الرأى على ارسال محمود صابر احد الرسامين الى مصانع سيفر بفرنسا على نفقة السيدة . وهناك يدرس طريقة الطلاءات الزجاجية حتى تستبدل الوان الزيت بالوان الخزف . وكان ان عاش محمود صابر عامين يرسم الزخارف العربية بالالوان الزجاجية على الاوانى في مصانع بسيفر دون ان يتدرب على عمليات الخزف ذاتها . من حيث تراكيب الصلصال والتشكيلات واساليب الحريق وما الى ذلك من العمليات التكنولوجية وصادفت رسومه نجاحا في فرنسا وحين عاد الى مصنع الهدى شيد الافران لاحراق الاوانى المزخرفة بالوحدات العربية فتوقف عن الانتاج سنة ٣٠ بعد ان كثر الحديث عن استغلال العاملين بالمصنع للخامات والأجهزة لانتاج وتسويق السلع الخزفية الخاصة بهم . فدب الخلاف وانفض السامر ..

وحين عاد سعيد الصدر من لندن سنة ١٩٣١ واصل والده مساندته فصحبه الى بيت هدى شعراوى راعية الفنانين عسى ان تسنح الفرصة لتحقيق احلام الفتى المتحمس . وبعد ان رويت القصة .. طاف سعيد بأرجاء المصنع وفحص أجهزته وافرانه ثم عاد للسيدة بتقرير يقترح فيه ادخال تعديلات طفيفة لا تزيد تكاليفها عن خمسين جنيها . ولم تكد السيدة تسمع الرقم حتى استعادت ذاكرتها الاموال الطائلة التى انفقتها بلا نتيجة على مصنع الهدى . فرفضت انفاق المزيد وسألت الصدر ان يدير المصنع كما يشاء دون ان يطلب مليما واحدا . ولم يعد الصدر الكرة مرة أخرى .

وفي هذه المناسبة . نلاحظ طابعا خاصا في سلوك سعيد الصدر منذ نعومة اظافره كان جادا . حازما حاسما . واضحا . صريحا . مهذبا مجاملا في نفس الوقت . لكنه قد يبلغ حد الخشونة اذا تعلق الأمر بحرية الرأى .

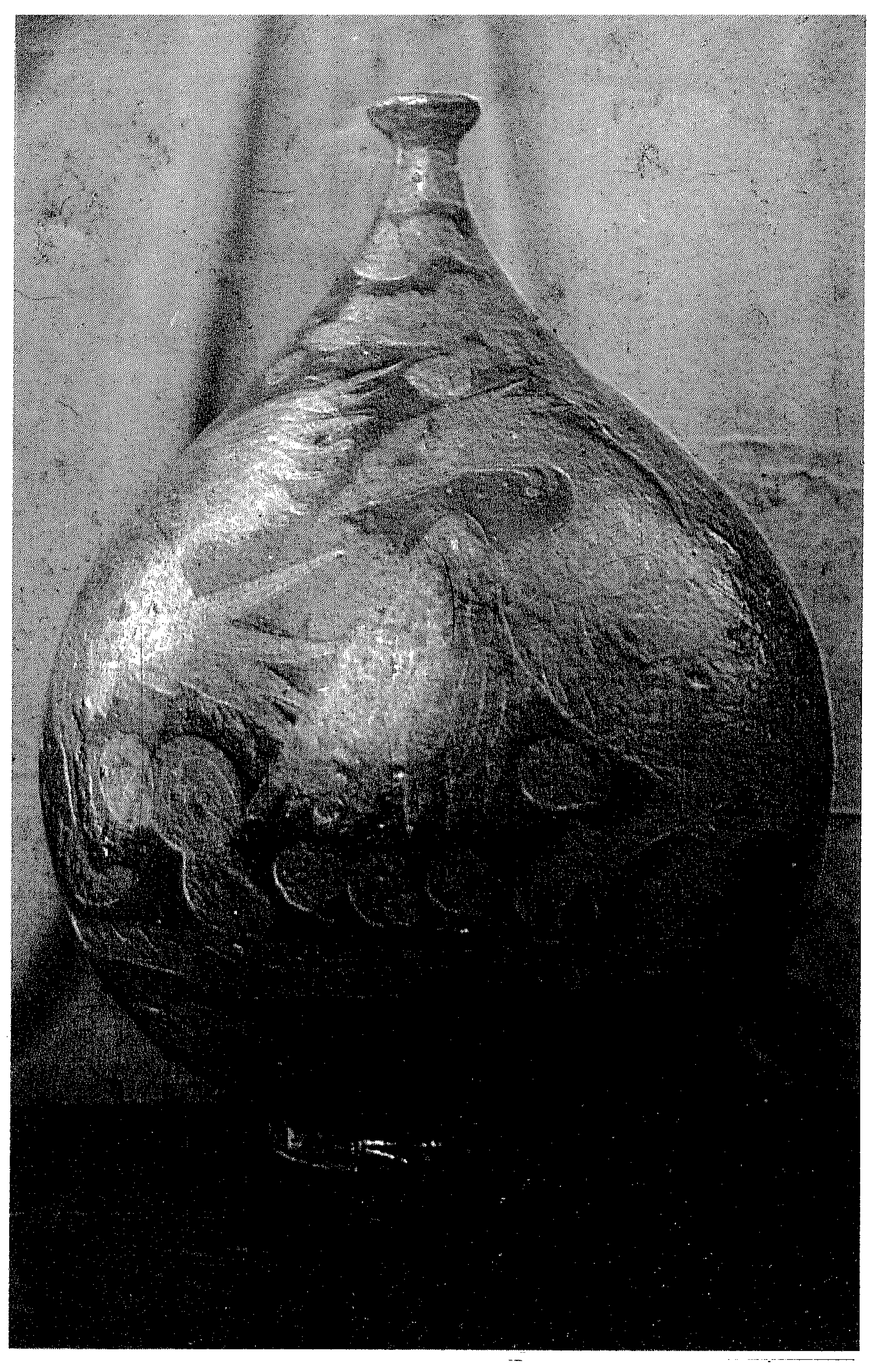
هكذا رفض سعيد الصدر كلمات هدى شعراوى رغم اعتزازه بها وتقديره العميق لنواياها الطيبة .. وتشاء الاقدار بعد هذا اللقاء بثلاث سنوات اى سنة ١٩٣٥ . ان تشكل لجنة يدخل سعيد الصدر ضمن أعضائها لتقرر هدم مصنع الهدى المغلق لعدم صلاحيته للتشغيل .

وهكذا كانت المحاولات الثلاث الرئيسية التى سبقت ظهور سعيد الصدر وكأنها دقات ثلاث ايذانا باذاحة الستار عن ساحر الأوانى :

الأولى محاولة وليام دى مورجان ..

الثانية محاولة سنيور سورناجا ..

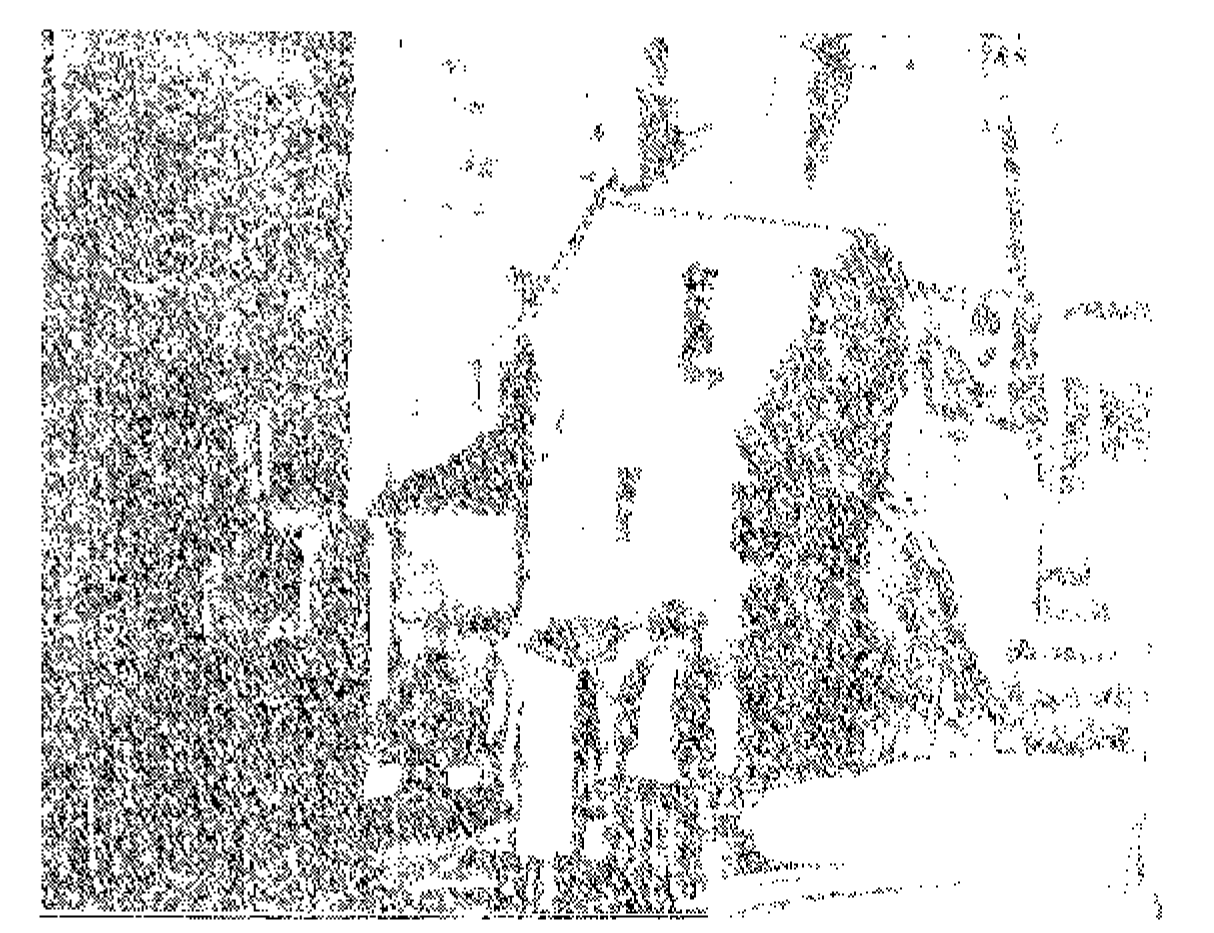
والثالثة محاولة هدى شعراوى التى انتهت سنة ١٩٣٠ ليبدأ الصدر دوره سنة ١٩٣١ .



١ ـ آنية بالألوان المعدنية فوق أرضية سوداء انتاج الفنان الصدر عام ١٩٧٧

بعض أعمال الفنان الصــدر
"من تصوير ونحت وحفـر"





٣ ـ قرية بانجلترا ألوان مائية سنة ١٩٣٠



١ ـ قهوة بلدي ألوان مائية سنة ١٩٣٠



٢ ـ علي الترعة ألوان مائية سنة ١٩٢٥

ـ قرية بانجلترا ألوان مائية سنة ١٩٣٠

٥ ـ قرية بانجلترا ألوان مائية سنة ١٩٣٠



٢ ـ آنية فيروزية الطلاء ومرسوم فوقه بالأحمر النحاسي المختزل من تصميم وأخراج الفنان الصدر عام ١٩٧٠ .

٤ ـ آنية من خزف الراكو اخراج الفنان الصدر عام ١٩٧٠.





٦ ـ منظر بانجلترا الوان مائية سنة ١٩٣٠



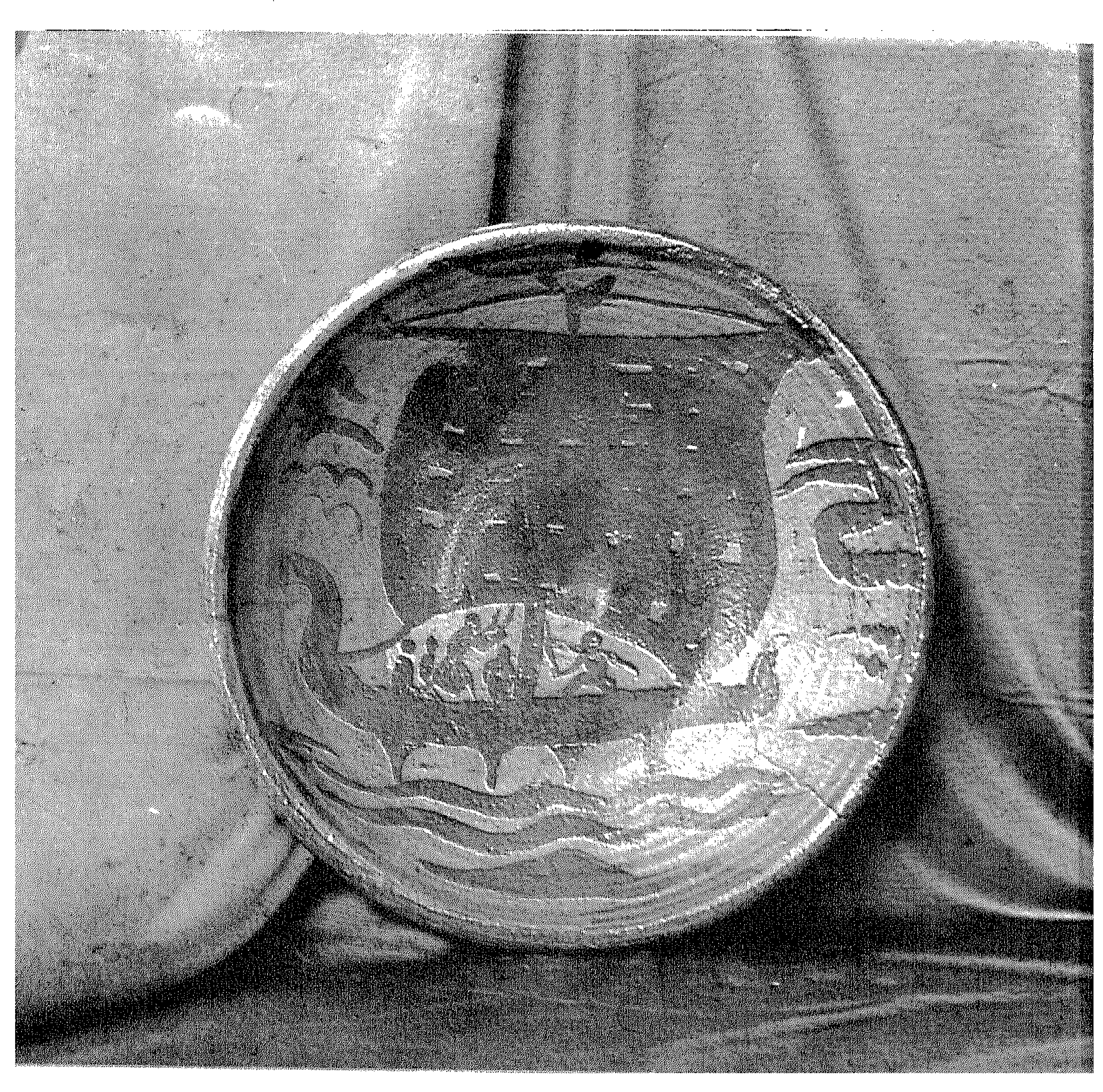
٧ ـ منظر بانجلترا ألوان مائية سنة ١٩٣٠



٩ ـ تسريحة الشعر نحت سنة ١٩٣٨



٥ ـ آنية فيروزية الطلاء اخراج الفنان الصدر عام ١٩٦٩ .



٦ ـ صحن فيروزي الطلاء مرسوم عليه بالأحمر المعدني المختزل عام ١٩٧٠.



١١ ـ الحياة فوق السطوح تمبرا سنة ١٩٣٨



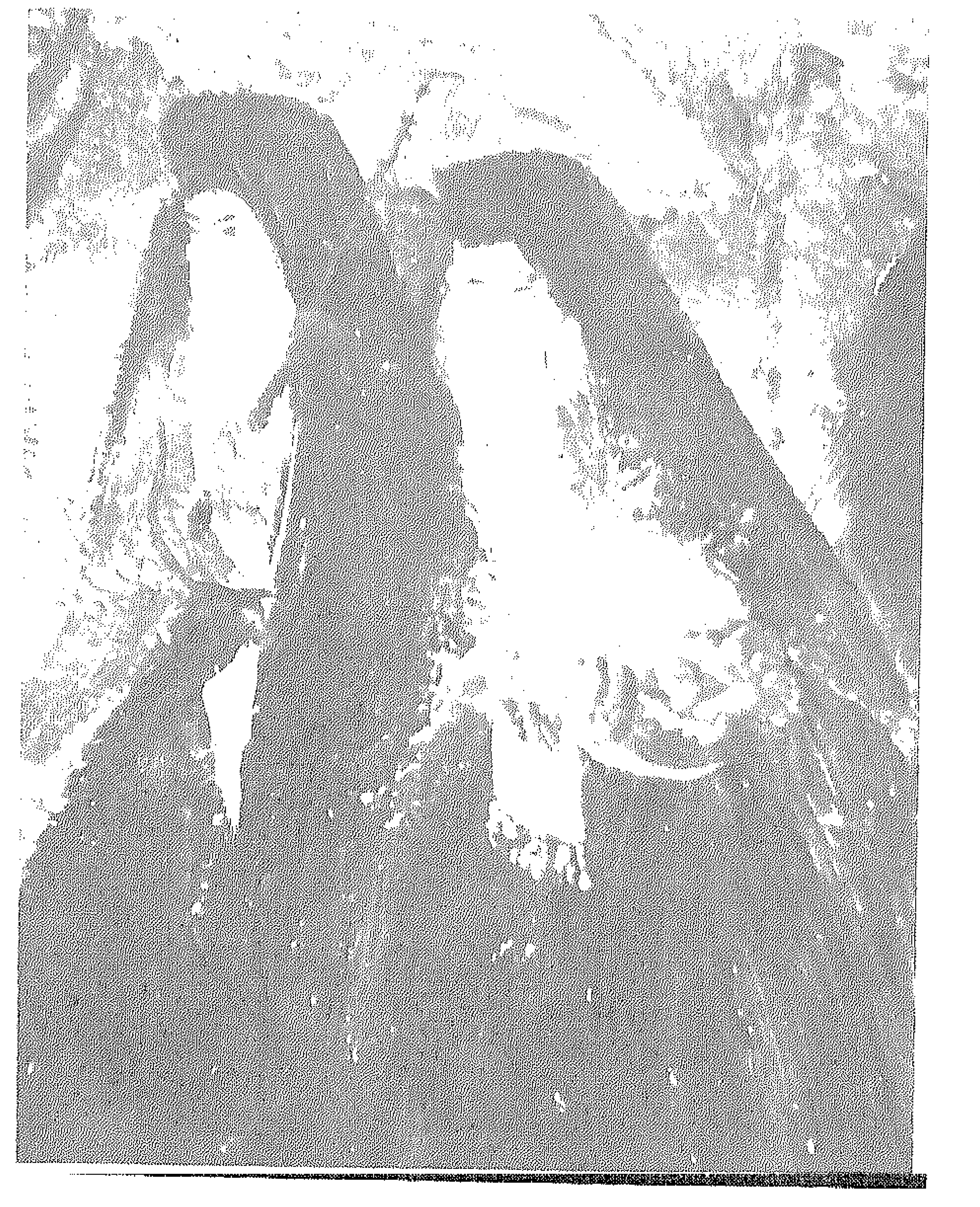
١٠ ـ تحت الربع ألوان مائية سنة ١٩٤٢



٨ ـ قهوة بأسوان زيتية سنة ١٩٣٢



١٦ ـ دراسة باستيل سنة ١٩٤٧

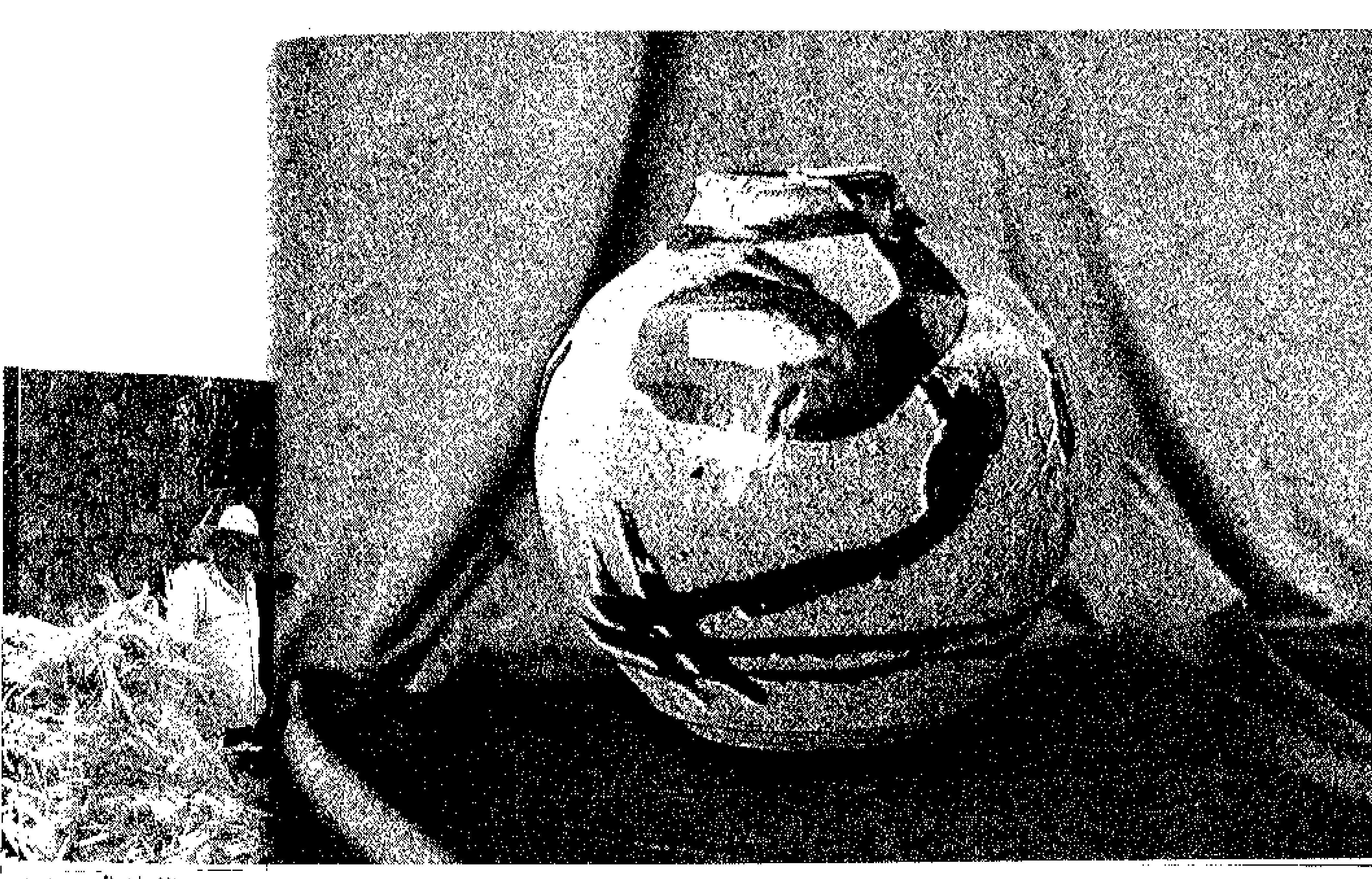


١٧ ـ ذكريات زيتية سنة ١٩٤٨





١٨ ـ أشجار زيتية سنة ١٩٤٨



٧ آنية خزف حجري تصميم واخراج الفنان الصدر عام ١٩٦٠ .

٩ ـ الفنان الصدر بين أفرانه بالفسطاط سنة ١٩٧٠ .



١١ ـ الفنان الصدر يراقب فرنه بالفسطاط سنة ١٩٦٩ .



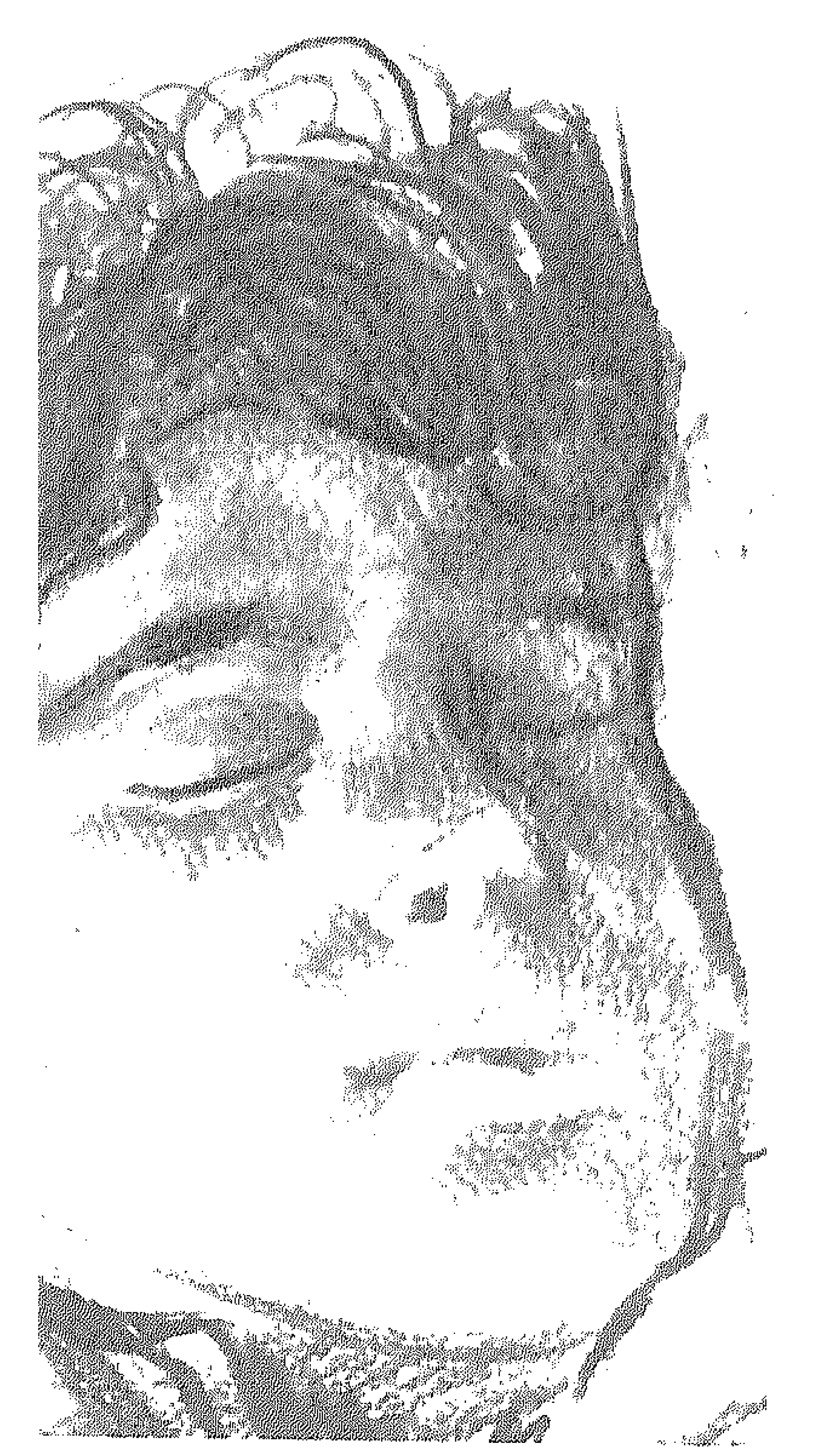
١٠ ـ الفنان الصدر ينظم قطع خزفية بداخل الفرن سنة ١٩٦٩



١٢ ـ الفنان يعمل في تشكيل آنية بمعمله بالفسطاط سنة ١٩٧١ .



١٢ ـ طفل نائم قلم رصاص سنة ١٩٤٤





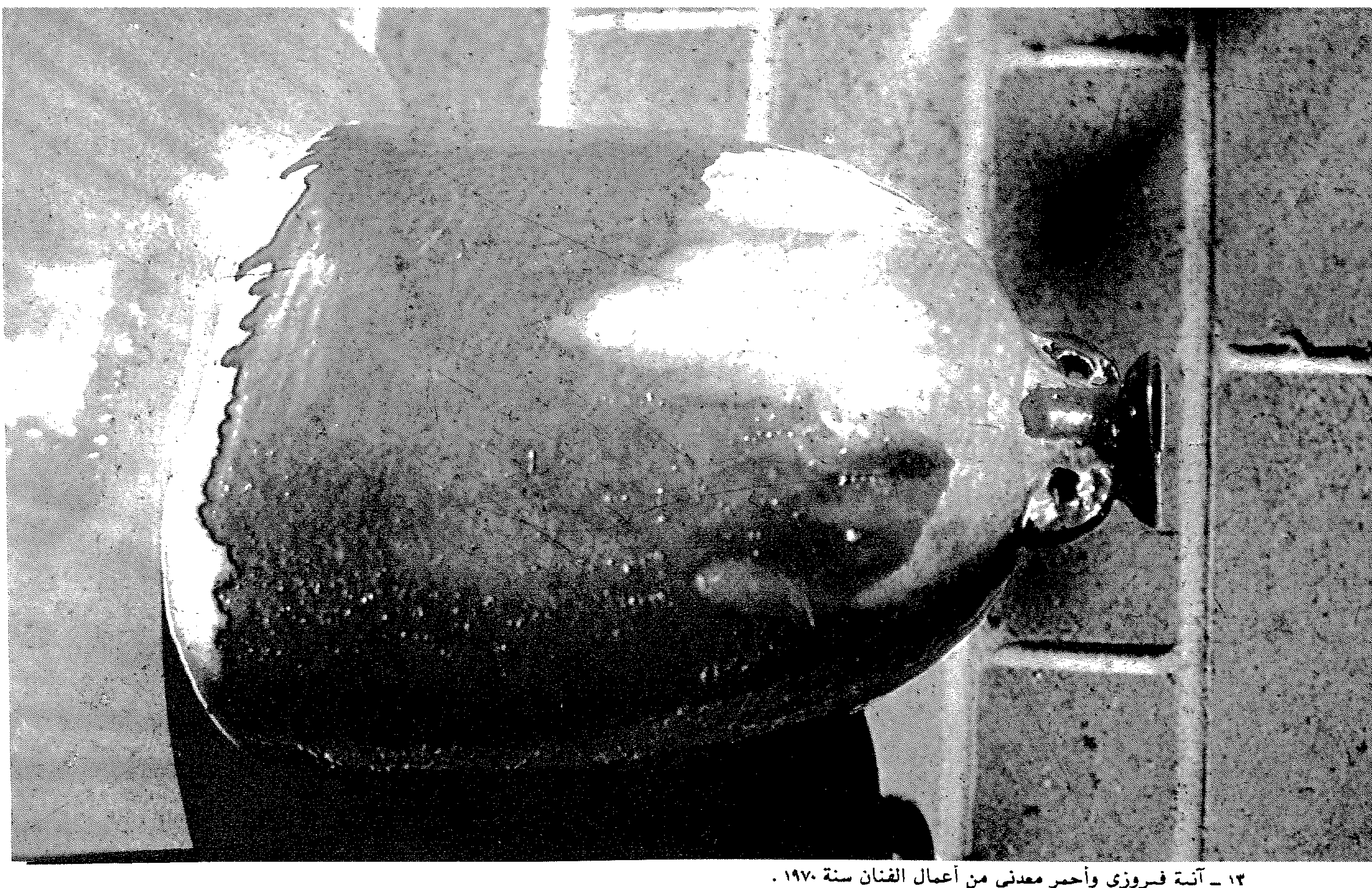
١٣ ـ نائمة قلم رصاص سنة



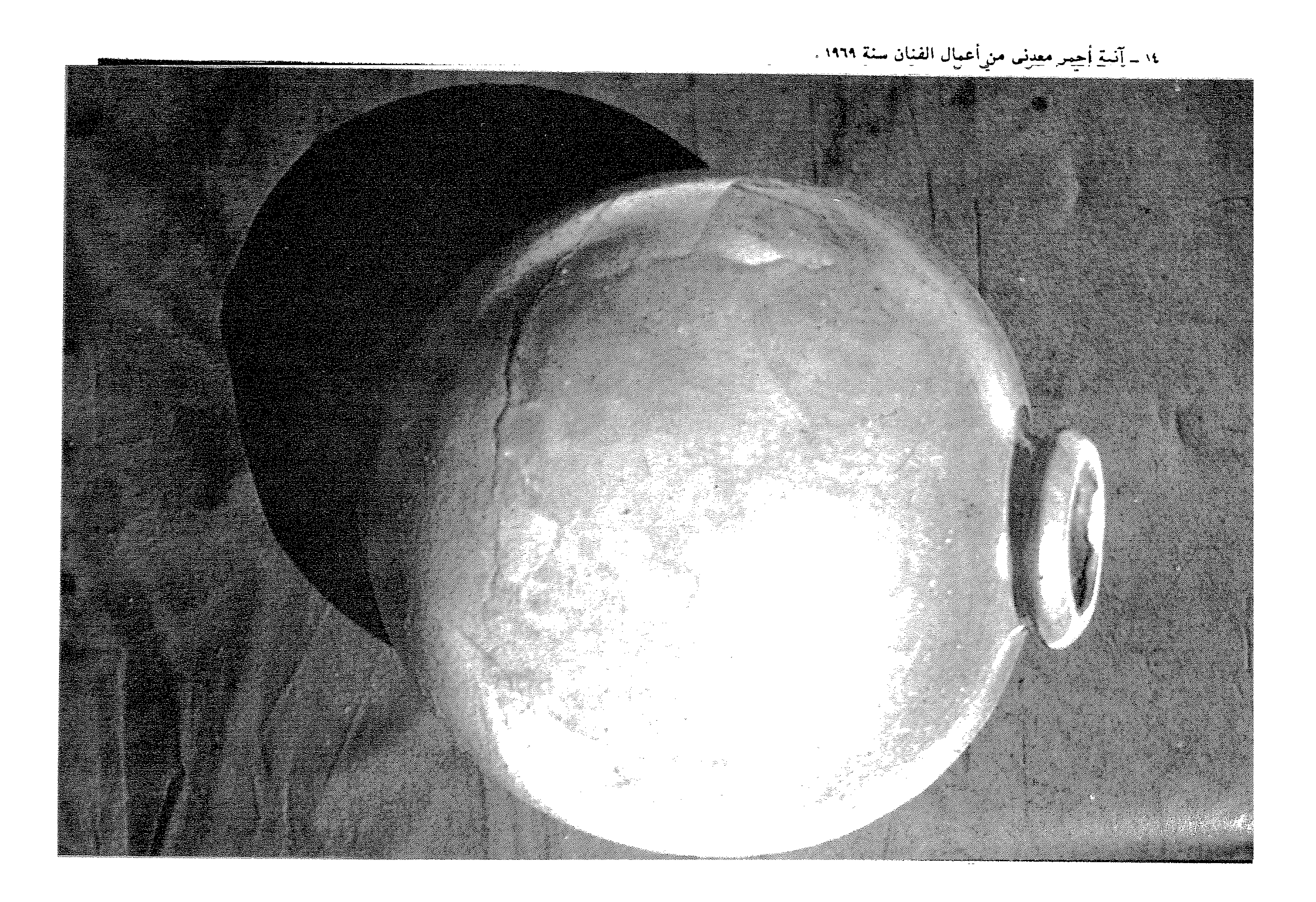
١٤ ـ أسوان قلم رصاص سنة ١٩٤٤



١٥ ـ فتاة أسوانية قلم رصاص سنة ١٩٤٤



١٣ ـ آنية فيروزي وأحمر معدني من أعمال الفنان سنة ١٩٧٠ .



١٤ ـ آنية أجير معدنى من أعمال الفنان سنة ١٩٦٩ .



١٩ ـ دراسة فحم سنة ١٩٤٨



٢١ ـ الفنان الصدر زيتية سنة ١٩٤٧



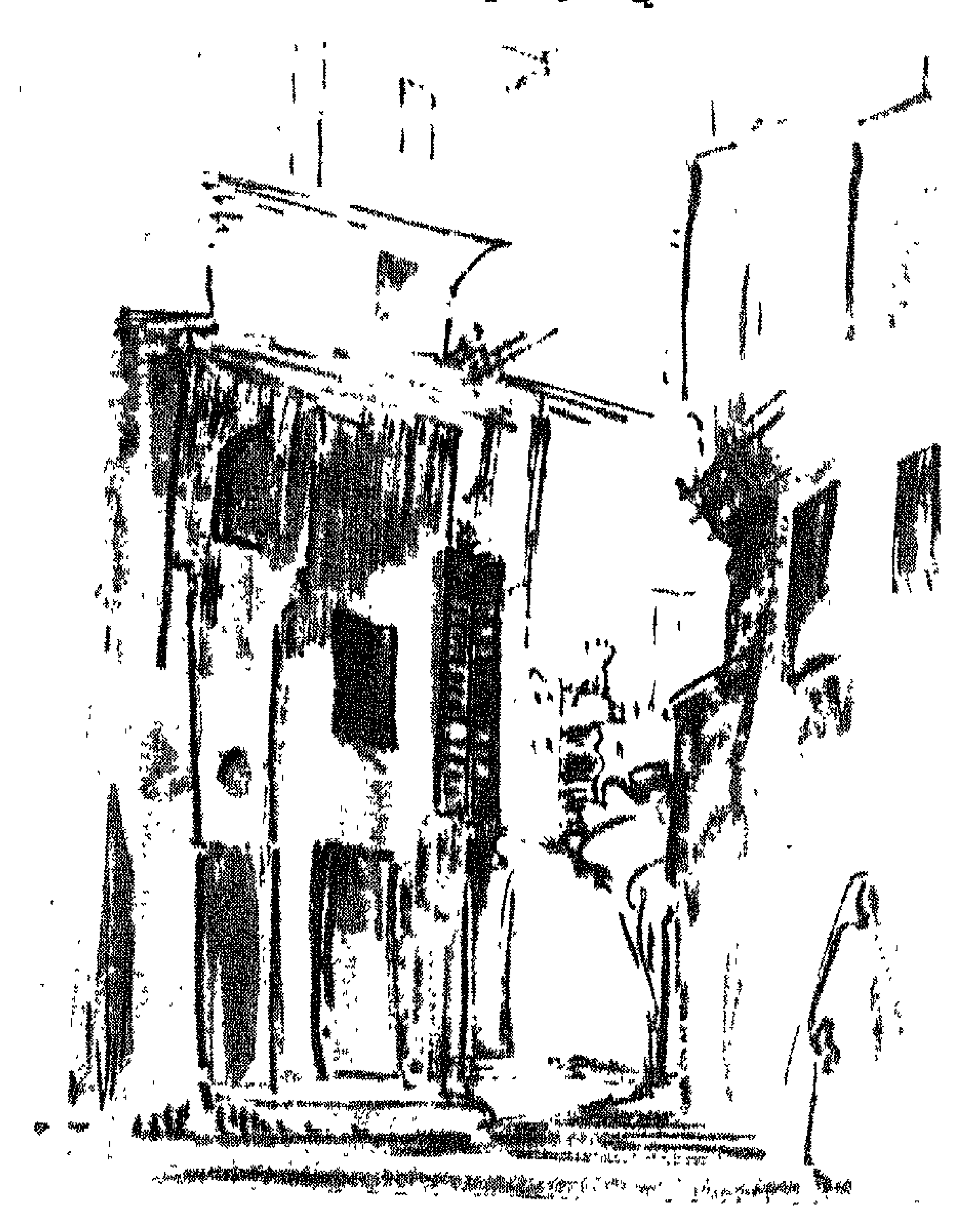
٢٠ ـ إبن الفنان زيتية سنة ١٩٤٧



٢٢ ـ علي التل مائية سنة ١٩٤٥



٢٣ ـ الفيوم مائية سنة ١٩٤٦



٢٤ ـ مدخل القرية مائية سنة ١٩٤٩



٢٥ ـ قرية مائية سنة ١٩٤٩



١٥ ـ صحن مرسوم بالأحمر المعدني المختزل عام ١٩٦٥ . تصميم واخراج الفنان الصدر .



١٦ ـ انية مرسومة بالفضي المعدني المختزل عام ١٩٦٥ تصميم واخراج الفنان الصدر .



٢٦ ـ بالقرية مائية سنة ١٩٤٨





٢٧ ـ زخرفة جواش سنة ١٩٥٠



٢٨ ـ القاهرة زيتية سنة ١٩٥٠



٢٩ ـ رأس نحت سنة ١٩٥٠

٣٠ ـ غزلان نحت سنة ١٩٥٢



٣١ ـ محمد فريد نحت سنة ١٩٥٢

١٧ ـ سلطانية من الخزف الحجري تصميم واخراج الفنان الصدر عام ١٩٣٢ .

١٩ ـ سلطانية حمراء نحاسي ومرسوم بالفضي بالاختزال
تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٥٠ .



١٨ ـ اناءان بأرضية سوداء عليهما رسم بالفضي المعدني تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٥٠ .



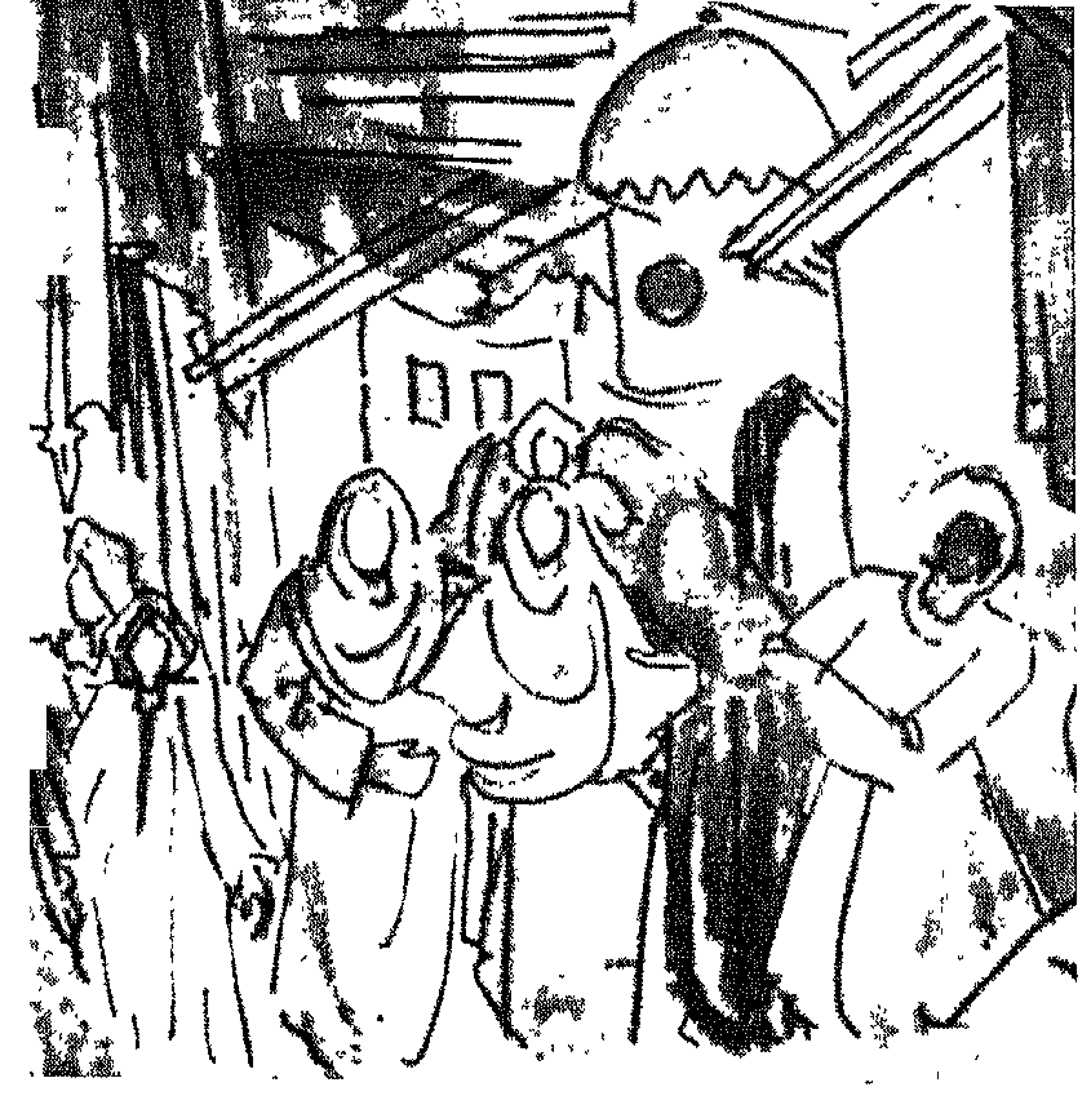
٤١ ـ الفنان الصدر وزوجته ومختار العطار
في زيارة الفنان بمرسمه بمصر القديمة



٣٢ ـ شجرة ألوان مائية سنة ١٩٥٢



٣٤ ـ علي النيل ألوان مائية سنة ١٩٧١



٣٥ ـ بالسوق ألوان مائية سنة ١٩٧٢



٣٣ ـ القرمة والقط مائية سنة ١٩٥٠



٣٦ ـ الدرب الأصفر باستيل سنة ١٩٦٢

٣٧ ـ بالسوق حفر سنة ١٩٦٠



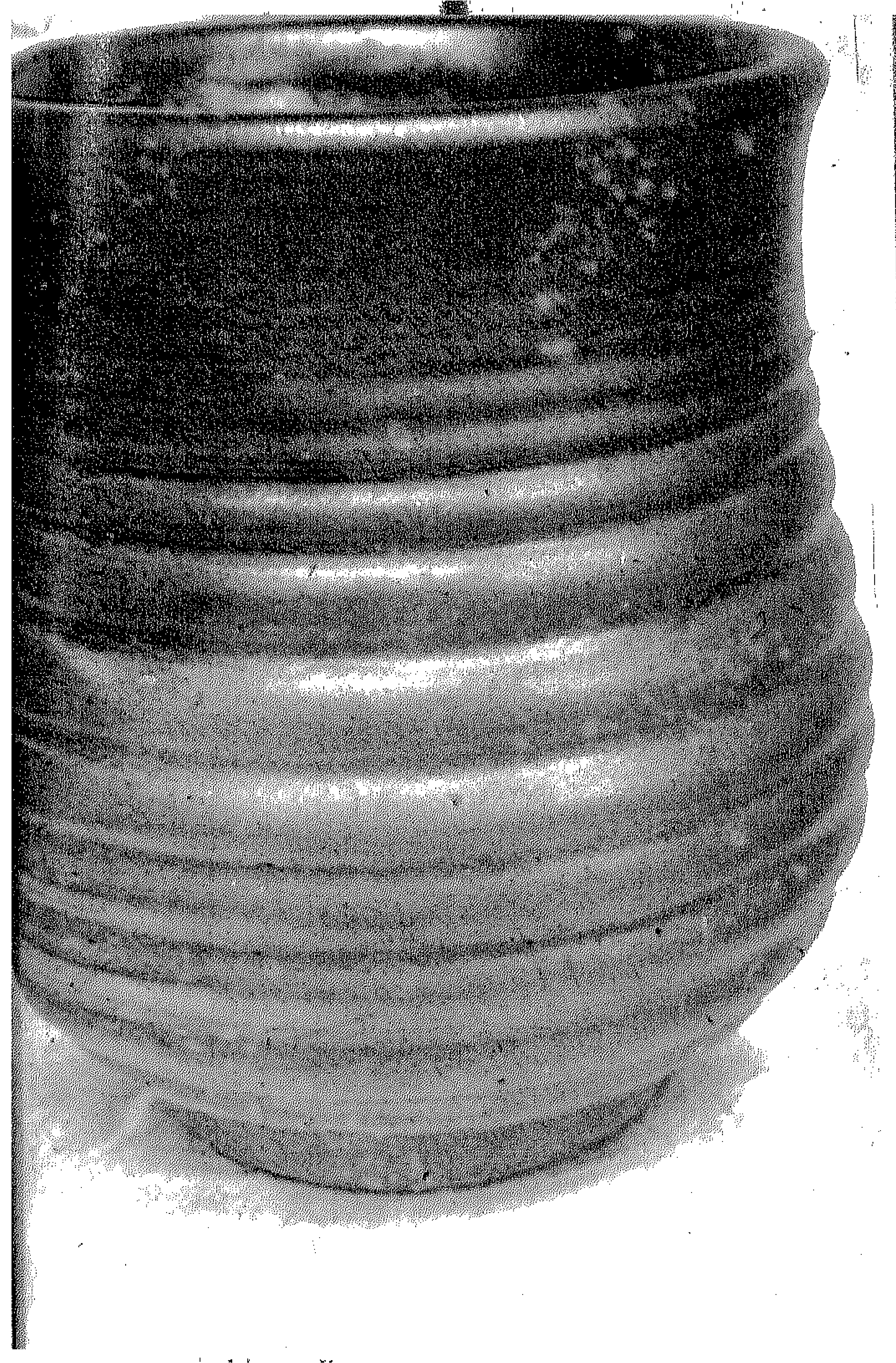


٣٨ ـ أشجار حفر سنة ١٩٦١





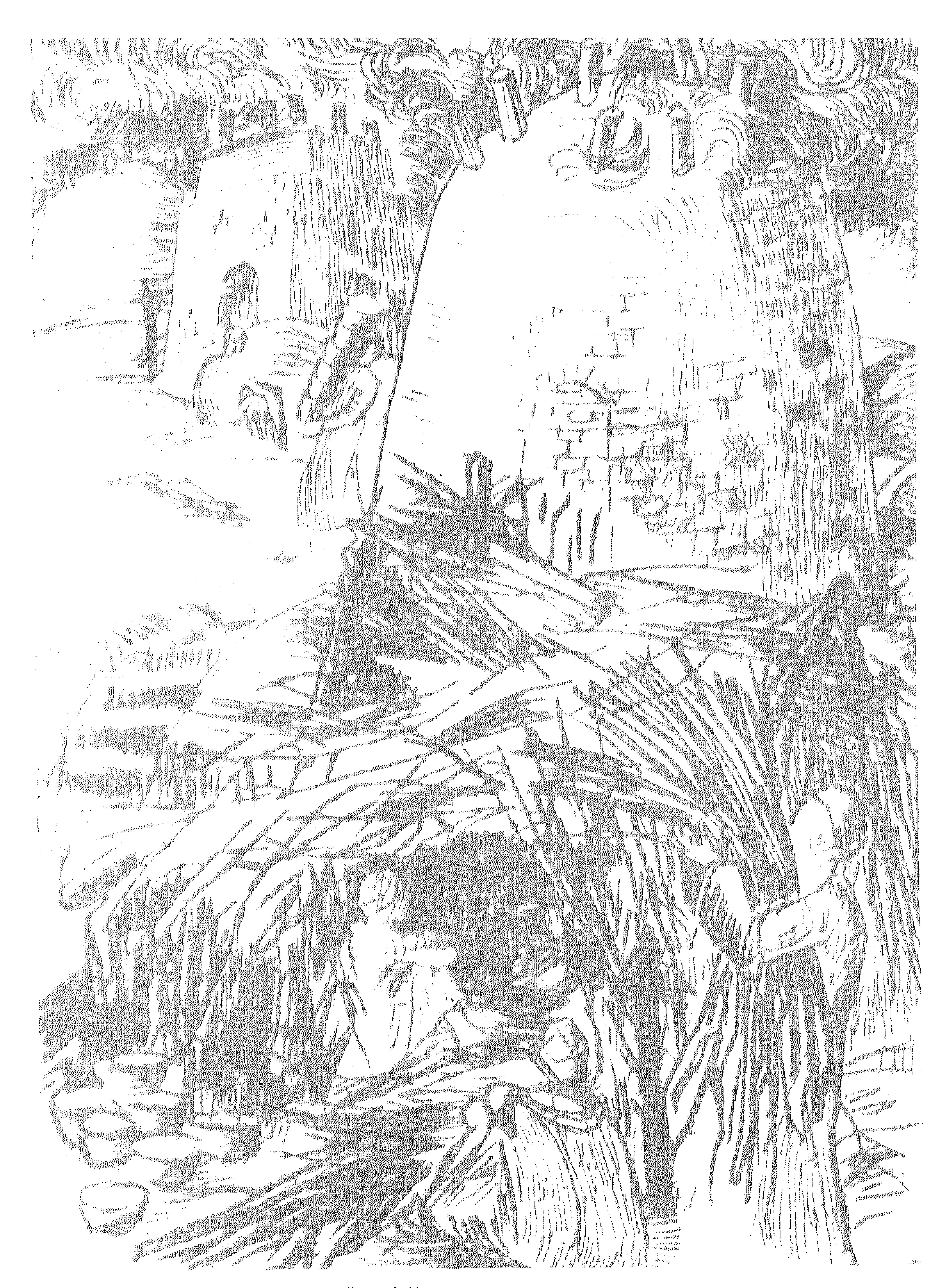
٢١ ـ آنية لون أحمر معدني وعليه رسم بالأبيض سنة ١٩٧٨



٢٠ ـ آنية من الخزف الحجري تصميم وإخراج الفنان الصدر عام ١٩٣٣ .



٢٢ ـ سلطانية أحمر معدني وفيروزي من أعمال الفنان سنة ١٩٦٥ .



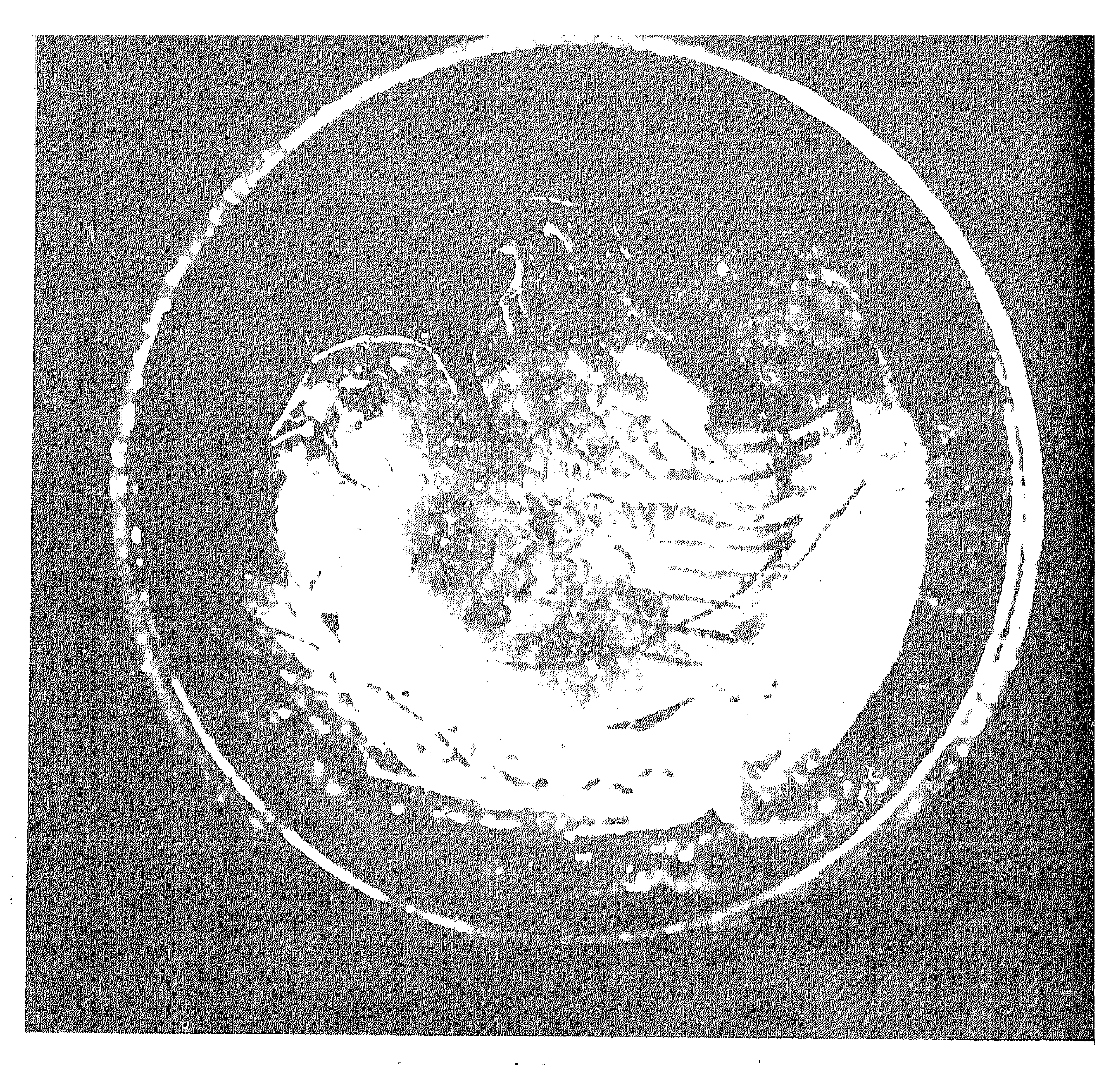
٣٩ ـ الفرن بالفسطاط سنة ١٩٦٠



٤٠ ـ بداخل الفاخورة سنة ١٩٦٠



٢٣ ـ اناء عليه أحمر معدني من أعمال الفنان سنة ١٩٧٠ .



صحن باللون المعدني فوق الطلاء الأسود تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٧٦

■ متى تحول الطين إلى ذهب

ما أمتع أن يتحدث الانسان عن تاريخه .. الأفراد يباهون بتاريخهم والأمم تفخر بتاريخها والبشرية كلها .. تبذل الجهود المضنية وتنفق الأموال الطائلة لتبحث عن تاريخها ، فمن التاريخ نعرف المستقبل .

وأجمل التاريخ ما كان مضيئا بهيجا مفعما بالحركة والابداع .. وأبدع الابداع ما ضرب بجذوره في القيم الاجتماعية والروحية .

ويقول أرنست جروب ــ حجة تاريخ الفن أن الفن الاسلامي ينفرد بالصفة الدينية بين فنون البشر ، لأنه نجح في التعبير عن العقيدة الاسلامية .



سلطانية باللون المعدني الأحمر تصميم وتنفيذ الفنان عام ١٩٦٢ .

نسوق هذه السطور في صدد تناولنا الحياة وفن سعيد الصدر . الذي اكتشف حقيقة الخزف الاسلامي بعد أن طمسه الظلام العثماني منذ قرون ثلاثة . تبين الصدر كيف عبر الفنان الاسلامي عن خلود الروح والتصوف والسمو .. والارتقاء عن مادية المادة .. اكتشف كيف تحول الطين بين يدي الخزاف الاسلامي الي ذهب . وفضة . ونحاس . وبرونز . ومعادن لم ترها عين من قبل . حين استطاع أن يكسوها بألوانها المعدنية .

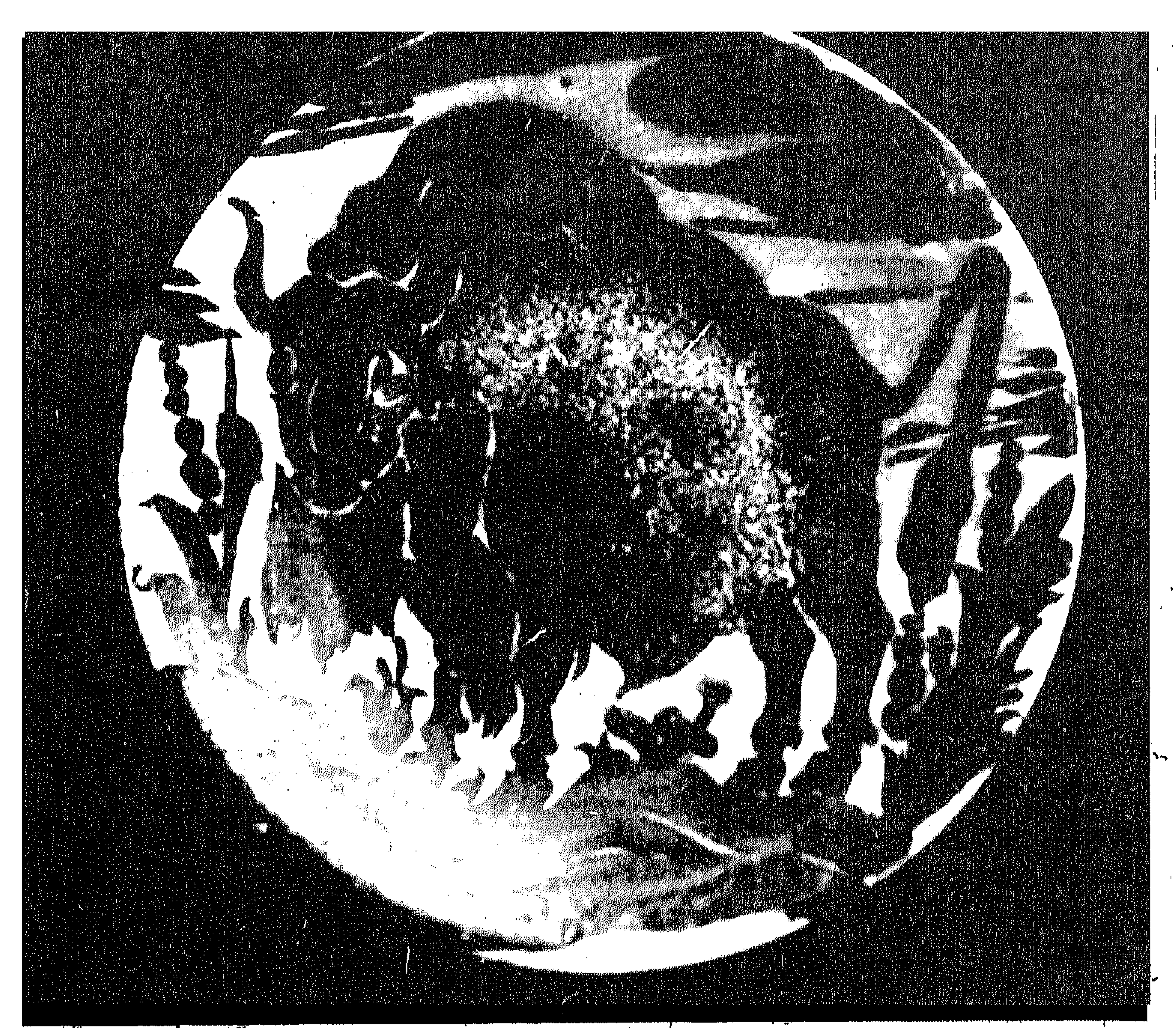
تلك هي كل العلاقة بين أواني سعيد والأواني الاسلامية . بالاضافة الي أسرار اللمسة اللونية الزخرفية التي استلهمها الفنان الاسلامي نفسه من وحدات وسط آسيا التي تشبه رسوم الأيقونات والوحدات البدائية .

تلك الرسوم التي بلغت مستوي البلاغة الرفيعة علي أواني الصدر . لذلك حين نضع آنية سعيدية في معرض دولي بين آلاف الأواني من أنحاء العالم . نراها تخطف أبصارنا .. وتجذب قلوبنا . وترتفع بأرواحنا الي آفاق سماوية . وتفوز بالجائزة الأولي والميدالية الذهبية .

حين سأل الصحفيون سعيد الصدر بعد فوزه في معرض براغ الدولي سنة ١٩٦٢ :

ــ ما رأيك في الخزف الأوروبي ؟

قال : يشبه أزهار البلاستيك .. جميلة جدا . لكن بلا رائحة .. وبلا حياة .



صحن باللون المعدني الاحمر تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٤٩ .

هذه الرائحة وتلك الحياة . هي التي تعلمها سعيد من سعد ومسلم وشيخ الصنعة . وغيرهم من عباقرة التصوير الاسلامي علي الخزف .

لكي يدرس الصدر الخزف الاسلامي وأساليبه المائة وخمسين ، التي استطاع أن يكشفها حتي الآن ، كان عليه أن يصل الليل بالنهار بجوار النار . صيفا وشتاء . يرقب الفرن وهو يحتضن أوانيه ، كما يرقب الأب حجرة العمليات منتظرا طفلة الأول .

لكن .. لذلك قصة سنرويها ونحن نهيم معا ، في أرجاء حياة الصدر ، التي لا يخلو يوما فيها من حكمة وعبرة وبحث واضافة . وفكرة تضييء طريق الخزافين المصريين والعرب في مستقبل الأيام . بعد أن يدركوا أن العيب ليس في أقدارنا .. لكن العيب في نفوسنا ــ كما قال شكسبير أو كما قال الشاعر أبو ماضي :

ما ملات دربي الاشــواك
أن الأشـواك لفي قلـبي

تعلمت أوروبا منــا الكثـــير . ومــا زال عنـــدنا الكثـــير لم

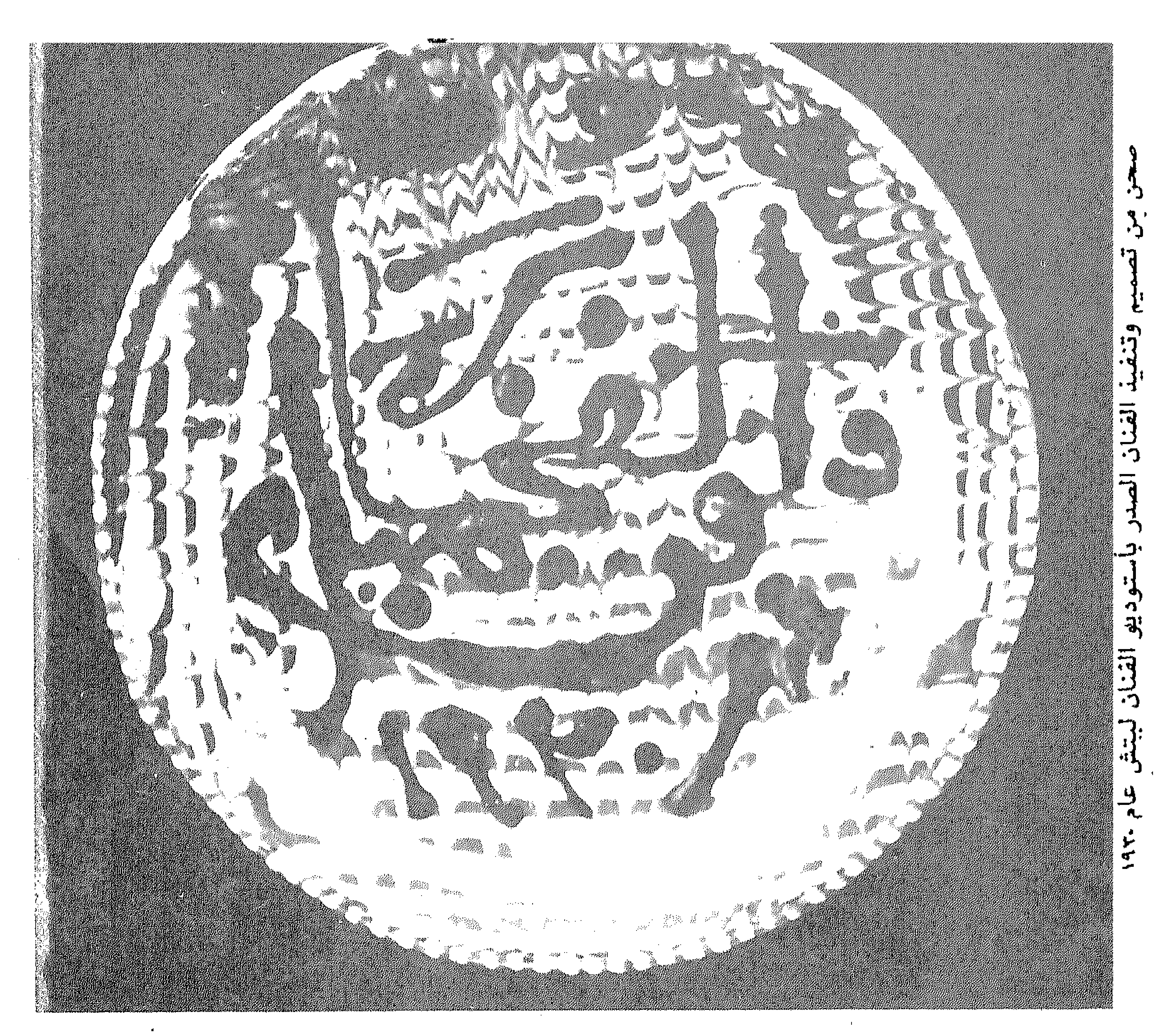


صحن من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٦٥ متأثرة بالاسلامي القديم.

تتعلمه بعد . ولم نتعلمه نحن أيضا . وقدأدرك الصدر هذه الحقيقة حين قال : يا من تعجبون بفني . أود أن أعرض عليكم رائعة اسلامية واحدة .. لتتأكدوا أن المشوار مازال بعيدا .

هذه كلمات الرجل العظيم من فوق القمة . فأعمال الصدر في واقع الأمر تفوق الكثير من الابداع الاسلامي واذا قارنا بين غلظة وخشونة الخزف الفاطمي في مصر « ٩٦٩ ـ ١١٧١ » ورقة ودقة وخفة الخزف السعيدي المعاصر . لأدركنا أنه أضاف الجديد الي التراث ، ولكي نلمس صدق هذه الدعوي ، تحتم علينا أن نسترجع معا سيرة الخزف الفني الاسلامي من بداية البداية . حتي عصر الانحطاط والخراب الذي صاحب خطوات السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ .

لا تظن أنني أصحبك الي متاهات التاريخ .. فالتائه من يترك التاريخ .. فضلا عن أن التاريخ حكاية مثيرة كلها حب وشوق وعجب .. وأحلام تتحقق ولو أنك ذهبت ذات صباح الي المتحف الاسلامي بالقاهرة ، وطفت بقسم الخزف هناك .. لأدركت أن التاريخ جمال وشعر وموسيقي .. واننا خدعنا طويلا حين تصورنا أن التاريخ حرب وضرب ومذابح .. فتاريخ البشر أرفع من كل هذا . والفرق شتان بين مخالب النسر وأنامل الفنان .



صحن من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر بأستوديو الفنان ليتش عام ١٩٣٠

أما الخزف بالذات . فله علاقة أكيدة بنا .. أنت وأنا وكل الناس . لأن تاريخ البشر كما يقول المؤرخون .. مسطور علي شظايا الخزف وبقايا الفخار .

دعني اذن . أصحبك في رحلة قصيرة الي دنيا الخزف الاسلامي ، منذ ظهر في بلاد العباسيين في العراق « ٧٥٠ ــ ١٢٥٨ » في أول المدن الاسلامية العظيمة . بغداد . ثم في العاصمة الفاخرة التي شيدت علي ضفاف دجلة في فجر القرن التاسع باسم : سر من رأي . واشتهرت فيما بعد بسامرا . وأصبحت منطلقا لأروع حركة خزفية عبر التاريخ . غمرت بأضوائها كلا من آسيا وأوروبا .

في ذلك الزمان . وردت الي بلاط الخلافة طراز « تانج » من بلاد الصين . تتميز بضربات لونية سريعة علي خلفية بيضاء . فهفت قلوب الولاة والأمراء الي مزيد من تلك الأواني التي تدخل السرور علي النفوس لمجرد مرآها . وحبذا لو زينت بكتابات عربية . من هنا بدأت حركة الخزف الفني الاسلامي .

ونستطيع أن نلمس في بواكيرها تقليدا صريحا لأواني الصين في أسلوبها الزخرفي .. ولا نقول خاماتها . فقد كان المبدأ السائد في الفنون الاسلامية عامة . هو الاعتماد علي



صحن من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٤٨ من مقتنيات الملكة السابقة فريدة

الخامات المحلية . بعد منحها ما يعوض رخصها . من ثراء في الروح .. وغنى في الجمال وبراعة في الصنعة . ورشاقة في الأسلوب .

هكذا اكتفى الخزافون العباسيون بتقليد الزخارف الصينية والتشكيلات التجريدية البارزة . مع احلال الكتابة العربية محل الصينية .. واضافة خطوط تجريدية ذات طابع هندسي .

سرعان ما طار صيت الفن الجديد الى مصر واتخذ طابعا محليا بوحدات تشخيصية من الطيور والحيوانات . تعيد الى الأذهان أسلوب الأيقونات ! أو الرسوم الرمزية الكلاسيكية .

ان الاضافة الكبرى التي أبدعها الخزاف الاسلامي هي الرسم باللستر ـ أي الألوان المعدنية ـ فوق السائل الزجاجي ، مما حول الطين في مظهره الى معادن ذات ألوان فاتنة من درجات الأخضر . والأصفر . والبني والأحمر . فكان ذلك تعبيرا صادقا عن التسامي بالماديات والرقي بها والتسليم بفنائها والايمان بخلود الروح وهي أهداف الفنون الاسلامية جميعا .

■ أســــرار .. "ســــامـــرا"

حين اكتشف خزافو « سامرا »

ويعتبر التصوير بالالوان المعدنية باقي مراكز الخزف في العالم الاسلامي زمنا طويلا . كانوا في بادىء الامر ، يطلون الاواني بجميع الالوان المعدنية التي اكتشفوها . الا ان التكنيك كان صعبا شديد التعقيد فاختصرت الالوان فيما بعد الي اثنين فقط هما الاخضر والبني في غالب الاحوال .

لكن مصر الطولونية « ٨٦٨ ـ ٩٠٤ » تمكنت من كشف السر . ويقال ان ولاتها استقدموا خزافين من بغداد وسامرا ليبدعوا الاواني الجميلة القليلة التي بقيت من ذلك العصر . ويستدل علي ذلك بأن زخارف الاواني الطولونية اما تجريدية واما متعددة الالوان .. وكلاهما تتبعان مدرسة سامرا .

ويعتبر التصوير بالألوان المعدنية علي الخزف الاسلامي اسهاما جوهريا في تحقيق مضمون السمو بهذا العالم .. وازالة طابعه المادئ .. ومنح الاشياء صفات روحية .. تماما كما فعل المعمار الاسلامي حين ازال عن الاحجار الصلدة ثقلها وبرودتها وهي تشكل القباب الضخمة الهائلة . فلو انك شاهدت القبة من الخارج وتاملت زخارفها البارزة ، ووحداتها المترابطة المتكررة اللانهائية .. لبدت لك كانها خيمة من الدانتيلا لا تلبث ان تطير في السماء مع هبات النسيم . واذا تطلعت اليها من الداخل واطلقت خيالك يهيم بين مقرنصاتها وزخارفها .. لسبحت روحك في سماء من الطهر والتقوى ..

ـ لكن العصر الذهبي للتصوير علي الخزف الاسلامي كان في ايام الفاطميين « ٩٦٩ ـ ١١٧١ » اذا كانت مصر هي المنارة الثقافية للغرب الاسلامي . وقد تبني المصورون الطابع التشخيصي الذى ورثوه عن العراق فانتشر علي الخزفيات في نطاق واسع . ومن المدهش اننا اذا اسقطنا الرسوم الفاخرة من علي اواني الفاطميين ، لا نجد سوى اطباق وسلاطين غليظة بعيدة عن الرشاقه . اما الطلاءات الزجاجية فتميل الي الأبيض السمني .. وهي بدورها سميكة الي درجة التشقق . لذلك فالخزف الفاطمي لا يعول عليه في جوانب شكل الاحجام ونوعية الخامات .

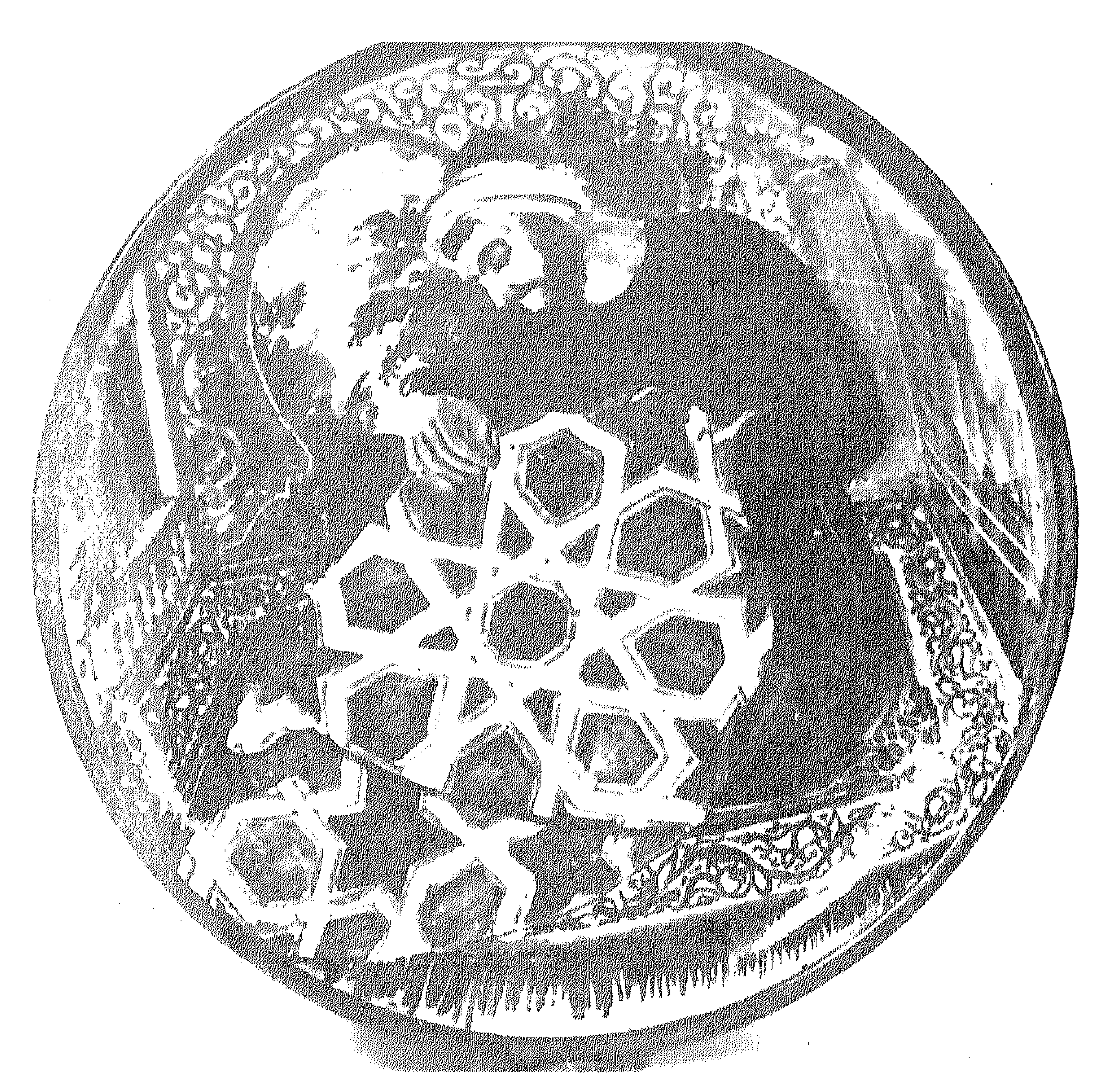
ان المثير في الاواني الفاطمية هو الزخارف الملونة باللستر او الالوان المعدنية التي تميل الي البني الداكن متضمنة متنوعات من الوحدات النباتيه والتشخيصية غاية في الجمال والروعة والرقة . معا يكشف عن انتقال الاسلوب السامراني الي مصر . وهو اسلوب التحديد بالخطوط الثقيلة مع بساطة التصوير بما يشبه رسوم الايقونات الذى كان منتشرا في وسط آسيا . كذلك التباين المقصود بين الوحدة المرسومة والخلفية الزخرفية . وقد تكون هذه الوحدة شخصا او طائرا او اشكالا مركبه مثل الطائر برأس انسان المرسوم بالبريق المعدني علي انية من القرن الثاني عشر المحفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة.

الا أن الخزافين الفاطميين اضافوا شيئا جديدا كل الجدة ومستقلا تماما عن اساليب التصوير السامراني .. ذلك هو تصوير الحياة اليومية العادية . فكثيرا ما ظهرت علي السلاطين صور الحمالين . والمصارعين .. والعمال .. وغيرهم . في تشكيلات تخطيطية سريعة بطريقة انطباعيه لا تحدها خطوط خارجية . وفي تلك السلاطين بالذات . نادرا ما تصادف عناصر ثانوية غير الموضوع المرسوم . اذ تقل الزخارف في الخلفية مفسحة المجال للوحدة المرسومة .

عكف سعيد الصدر علي دراسة الاساليب الاسلامية جميعا منذ فجر الخزف الفني حتي الآن . ونلاحظ اثر هذه الدراسة علي اوانية في مراحلها المختلفة ونعود لنؤكد ان هذه الدراسة تنحصر في الرسم والتلوين والتصوير .. وليس في شكل الاحجام او نوعية الخامات فقد تلمس دراسة نوعية الخامات في الخزفيات الصينية التي اشتهرت باتقانها . اما الشكال الاحجام فقد وجد ملهما لها بين اواني مصر الفرعونية وما يسمي بخزف البدارى بنوع خاص . الا انه انشغل طويلا بأبحاثه التكنولوجية حتي انها كانت تطغي احيانا علي ابحاثه الجمالية والفنية . لكن الصدر ، كصانع من صناع الحضارة ..ومبدع جمال .. ومتعبد في محراب الفن . كانت مهمته هي الجمع بين نوعية الخامة وجمال الفورم وبراعة الزخرفة والتصوير . وهي معادلة صعبة لا يستطيع انجازها الا استاذ كبير . فالخطوزة هنا ان ينتقص احد الجوانب الثلاثة من قيمة البعدين الاخرين . لذلك نسمعه يقول بين وقت واخر جملته المعروفة : لم احقق بعد ما اريد . يقصد انه لم يحقق هدف الجمع بين براعة التكنيك وروعة التصوير واشكال الاحجام . لكنه بالطبع ينظر الي نتائج ابداعه من زاوية مثالية ، اذ انه وصل بالفعل الي تحقيق الزواج السعيد بين التكنيك والجمال لكنه لا يكاد يحقق ذلك الامر في مجموعة من الاواني او مجموعتين حتي ينتقل الي مرحلة جديدة ويبدأ التجريب من جديد .

ونستطيع ببساطه شديدة ان تقسم انتاجه عبر السنين الي مراحل . واذا قدر لاحد ان يزور ورشة الفنان بين اطلال الفسطاط . لشاهد مجموعات من الاواني المثربة تنتظم الارض والارفف والدواليب وخارج الورشة .

سعيد الصدر فنان من نوع خاص فاذا كان الفنان مبدع جمال فالصدر اكثر من ذلك ، لأن عليه دائما ان يكتشف الوانه . وبعد ان يصمم آنيته في خياله قد تتدخل في تشكيلها وتلوينها عوامل ليست في الحسبان فالالوان مرتبطة بدرجة الحرارة قد ترتفع حرارة الفرن لامر ما .



صحن من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر

فيتغير اللون من الازرق الي الاسود .. ويفاجأ الفنان بطائر غريب في قفصه .. قد يسعد فنان اخر بهذه اللعبة ، وقد يطلق عليها اسما حديثا خلابا مثل : « تلقائية الخامة » . لكن لا .. ليس رائدا من يرضي بأن تصنع الاخطاء فنه فالصدر لا يتردد في تحطيم محتويات فرن باكمله - اى ثلاثين قطعة مثلا - لانها خرجت علي المخطط الموضوع - لا يبيعها .. ولا يهديها .. ولا يحتفظ بها . فالورشة مخصصة للابحاث العملية والانتاج النهائي لكل تجربة او مرحلة .. والبيت للابحاث النظرية والمذكرات اليومية .. اما الرسم والتصميم .. ففي كل مكان بعيد عن الفرن . لانه لا يطيق ان يرى فرنه خابيا ابدا .

يتخيل بعض مصورى الخزف ان البريق المعدني بسيط للغاية . يكفي ان تلقي الي النار خرقة مبللة بالكيروسين حتي ينتشر الدخان بين الاواني ويتصاعد الكربون الذى يختزل الاكاسيد المعدنية من الالوان . فاذا كان بين الطلاءات اكسيد النحاس ، اتحد الاوكسيجين بالكربون وبقي النحاس لامعا علي الاواني . الا أن الأمر اخطر من ذلك بكثير . اين درجات الالوان التي اكتشفها الخزاف الاسلامي ؟ اين الالوان المعدنية « اللستر » ؟ واين تزاوج الالوان المعدنية وغير المعدنية اين الاحمر المعدني الملتهب مع الاخضر الفيروزى الذى اكتشفه سعيد الصدر مؤخرا؟؟



صحن من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٦٥

عرف الصدر اسرار سامرا اكتشف خمس عشرة طريقة للبريق المعدني . تعرف علي مائة وخمسين اسلوبا للخزف الاسلامي .. واستفاد من ذلك جميعا في ابداع انية اصيلة تضرب بجذورها في التربة المصرية . فهو استمرار ومزيد من الازدهار للخزف الاسلامي وتدعيم للثقافة العربية وليس تمييعا لها . والتغييرات التي طرأت علي اوانية ليست منقولة عن الخزف الانجليزى الذى درس علي ايدى اساتذته . ولم يخطر علي ذهنه ان الخزف الاوروبي اكثر تقدما من خزفنا التقليدى كنتيجة للتفوق التكنولوجي للبلاد الاوروبية .. كما يحدث عادة لفناني الشعوب النامية حين تبهرهم حضارة الشعوب المتقدمة ..

سعد ومسلم .. ثم سعيد

تأثر أسلوب الصدر في التصوير على الأوانى الخزفية بأسلوب سعد ومسلم تأثرا عميقا . اذا انهما يمثلان المستوى الرفيع للتصوير الاسلامى على الخزف . لم يحدد المؤرخون زمن ظهورهما بالدقة ولكن انهما من العصر الفاطمى ما بين القرنين العاشر والثانى عشر ، وغالب الظن انهما معاصران لبعضهما البعض . ورغم استاذيتهما وشهرتهما ، لم يدخرا وسعا في ابداع اروع الرسوم على كل الأوانى مهما اختلفت خاماتها .. فالفخار بين ايديهما لا يفترق عن الخزف ذى الالوان المعدنية الا في مناسبة التصميم للشكل والخامة .. وقد استطاعا ان يحققا اللمسة السحرية بالفرشاة ، فترجما الطبيعة بضربات قليلة بليغة ، والوان مثيرة ، وتوزيعات محكمة ، ووحدات زخرفية مختصرة ومجردة الى مكوناتها الاولية مع تكامل الرسم مع شكل الحجم وغرض الاستخدام .

يظن بعض الناس ان هذا الأسلوب في التصوير الاسلامى هو مما يسمى « ارابسك » . وهذا غير صحيح لأن الارابسك هو تحليل الوحدات النباتية الى اجزائها واعادة تركيبها في وحدات متماثلة متكررة مترابطة لا نهائية .. استطاع الفنان الاسلامى ان يعبر بهذا الأسلوب عن مضمون الخلود والاستمرار وان يحول الايقاعات الصوتية الى ايقاعات بصرية . فالارابسك هو موسيقى الشكل .. اضافة مبتكرة للفنان الاسلامى ضمن اضافاته الكثيرة الى الفن التشكيلى عبر التاريخ .. ولم يظهر الارابسك على الخزف اطلاقا بل اقتصر على زخارف الاسقف وخامات الرخام والخشب .

لم يحصل سعد ومسلم على البريق المعدنى بطريقة الاختزال بالكربون ، لكنهما كانا يتبعان مدرسة سامرا . أما الاختزال بالكربون فقد نقلته أوروبا عن الصين ثم انتشر بين العديد من الخزافين .. وله في الصين قصة طريفة لا تخلو من المأساة .

حين اكتشف خزافو بغداد وسامرا الالوان المعدنية ، تفوقت اوانيهم على خزفيات الصين الواردة الى البلاط العباسى والتى كانت الدافع الاساسى لانطلاق الخزف الفنى الاسلامى .. وبعد ان كان الخزافون العباسيون يقلدون طراز « تانج » الصينى ، أصبح خزافو الصين في حيرة من امرهم يسعون خلف البريق المعدنى الذى صدر اشعاعه من سامرا . وحاول شيخهم خلال العديد من التجارب أن يكشف سر البريق الساحر . دون جدوى .. ولما استبد به اليأس

والح عليه الفشل . القى بجسده الى نيران الفرن منتحرا .. وما ان تصاعد الكربون من الجسد المحترق حتى اكتسبت الأوانى بريقا معدنيا ! هكذا .. اكتشفت الصين البريق المعدنى بطريقة الاختزال . ومنها اخذته مصانع بادو تسيلسي ودالتون الانجليزية حتى يوقفوا اقبال جماهير أوروبا على الخزف الصينى .

أما سعد ومسلم ومن قبلهم خزافو سامرا ومن بعدهم سعيد الصدر . فاستخدموا الالوان المعدنية ذاتهاوصوروا بها على الأوانى بعد ان حلوا المعادن واضافوا اليها المواد الكيماوية اللازمة كما يضاف الزئبق الى الذهب مع بعض المواد الأخرى ليصبح صالحا لوضع اللون الذهبى على الأوانى . فالأوانى في هذه الحالة تحرق عاديا في الافران دون كربون ودخان واختزال .. اكتشف الصدر هذه الأساليب جميعا بالتجريب على شظايا الخزف الاسلامى التى يجلبها من الفسطاط ويدخلها الى الفرن مرة بعد مرة مضيفا مواد معينة بعد كل حريق مسجلا قراءات درجة الحرارة بالموازين التى يضعها داخل الفرن . وغيرها من التجارب . تأكد ان الفنان الاسلامى لم يستخدم ابدا طريقة التدخين بل استخدم الذهب فعلا على الخزف كما استخدمه على المشكاوات الزجاجية والاخشاب واغلفة الكتب وصفحاتها . فمادام قد حول الذهب الى رقائق . سهل عليه تذويبه كيماويا وادخاله الفرن والوصول الى الطلاء المعدنى .

واذا كان سعيد الصدر يجمع شظايا الخزف الاسلامى القديم ليجرى عليها تجاربه . فقد كانت هوايته القديمة في صباه هى جمع شقافات الخزف من مناطق الدراسة وقايتباى . كان ينتهز كل الفرص ليأخذ حقيبته الصغيرة وينطلق الى الاطلال القديمة ليقضى وقتا ممتعا منحنيا على الأرض يقلب بأصابعه الصغيرة بين الأحجار والاتربة وشظايا الفخار والخزف التى كانت تثير انتباهه دون أن يدرى لذلك سببا . وكثيرا ما كان يجلس على الأرض وحيدا بين الاطلال يتأمل الالوان الرائعة والرسوم الشاعرية . قد يمسح الشظايا بيده احيانا أو يغسلها مؤقتا أحيانا أخرى ثم يتأمل وحداتها الزخرفة العجيبة .. وبريقها المعدنى الذى أصبح شغله الشاغل فيما بعد . كان يملأ حقيبته الصغيرة بنخبة منتقاه من حطام الخزف الفاطمى والمملوكى ويمضى بها الى بيته حيث ينظفها جيدا .. وبعد ان يقضى الساعات يتأملها واحدة واحدة . يفرغها جميعا في درج مكتبه . حتى يأتى يوم الاجازة التالى . فيأخذ حقيبته الى قايتباى من جديد . وكانت تنتهي أهدافه بمجرد أن يضم شظاياه الجديدة الي مجموعاته القديمة .. ثم تضيع الشظايا جميعا علي مر الأيام .

ولكن .. بعد ان يكون قد تأملها بما يكفي لتثبيت حبه واجلاله لهذا الشيء الغامض الذى يشعر به كلما شاهد شيئا أصيلا . ويبدو ان هذه العادة القديمة قد شحذت حاسته



صحن من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٦٥

النوبية والزخرفية في الوقت الذى كانت تصقله فيه الحان سيد درويش وزكريا أحمد ومشاهد الاحتفالات الشعبية والدينية في حى الأزهر وسيدنا الحسين . فلا عجب اذن حين نراه اصيلا صلبا ذا طابع قومى محلى مسهما في الركب العالمى بقوة وجدارة ..

دراسات سعيد الصدر في تكنيك الرسم والتلوين ، وتناولت الناحيتين العلمية والفنية . اى من حيث التصميم الزخرفى والتعبير التصويرى وأسلوب التنفيذ . استمرت معه هذه الدراسات التكنولوجية بعد عودته من لندن الى معامل وافران كلية الفنون التطبيقية اثناء تدريسه لطلبتها ، ثم في مركز الخزف الذى أنشأه لحساب وزارة الثقافة سنة ١٩٦٠ بالفسطاط ، ثم في مركز الخزف الخاص ـ اى ورشته الخاصة التى اقامها سنة ١٩٦٤ بالقرب من المركز السابق . بالاضافة الى البحث النظرى في المؤلفات التى كتبت بحول الالوان المعدنية للخزف وخاصة المراجع الاسبانية .



آنية من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٦٥ باستديو الفنان بالفسطاط

كل هذه النواحى التى يبحثها الصدر في الخزف الاسلامى لا علاقة لها بالبعدين الآخرين ؛ نوعية الخامة .. وشكل الحجم أو الفورم الذى يتخذه الصلصال بعد التشكيل على الدولاب . فالخزف الإسلامى خاماته هشة غير جيدة . ومعظم اشكال احجامه لا يعول عليها اذا رفعنا عنها التصميمات الزخرفية والتصاوير الملونة .

ومع ذلك .. حتى في عصر الامضاءات .. حين كان المصورون على الخزف يوقعون تحت تصميماتهم ، ما زلنا نعثر حتى الآن بين شظايا الفسطاط على توقيعات لفنانين دار مثل غيبى وشيخ الصنعة ، بعضهما منقول عن الصينى طبق الاصل مثل رسم الطار الموقع عليه بحريف « غ » .. وهو التوقيع المعروف للفنان غيبى على معظم انتاجه

لكن .. سعيد الصدر ليس بين وانية ما يحمل رسما منقولا عن الرسوم الاسلامية او عن إى خزف آخر .. فجميع رسومه سعيدية خالصة .. قد تتأثر بفنان أحيانا .. أو تصميم معين أحيانا أخرى .. لكنها ابدا ليست نقلا عن احد .

■ اللمسة السحرية .. والشكل المهموس

تحدثنا عن وحدات التصوير والتصميمات الزخرفية التى يبدعها الصدر على أوانيه الخزفية . ونوهنا الى تأثره بأساليب سعد ومسلم . الا أن أمر هذه الأساليب يرجع الى زمن أبعد من العصر الفاطمى . كما أنها لم تظهر فجأة مع الخزف الفنى في بداية البداية في العصر العباسى .

فنحن نذكر أن الصور العباسية على الخزف كانت اما تجريديه وأما بخطوط هندسية وحروف عربية . لكن الصور والتصميمات التشخيصية ظهرت في مصر قبل الفاطميين ثم تغير الأمر في كافة العالم الاسلامى وأصبح هناك طابع خاص للتصوير الاسلامى والموتيفات الخزفية لا تخطئه عين . ويستطيع الخبراء من مجرد تأمل الرسم الخزفي ان يحددوا العصر الذى تنتمى اليه الآنية .

وصل الصدر بهذا الأسلوب في التصوير الاسلامى والتصميمات الى آفاق رفيعة . فتحولت صوره الى مجرد « لمسات سحرية » و « أشكال مهموسة» نستطيع أن نتبينها بوضوح في معرضة الذى أقامه في الخزفية الى آفاق قاعة جوته بالقاهرة في يونية ١٩٧٣ قبيل سفره الى كانبيرا . انتظمت القاعة الداخلية آنذاك لوحات غريبة كان يتأملها الزائرون مشدوهين متعجبين متسائلين : لماذا يعرض الصدر لوحات تصويرية مائية ليست سوى ضربات انفعالية بفرشاة عريضة بلون واحد في معظم الأحوال .

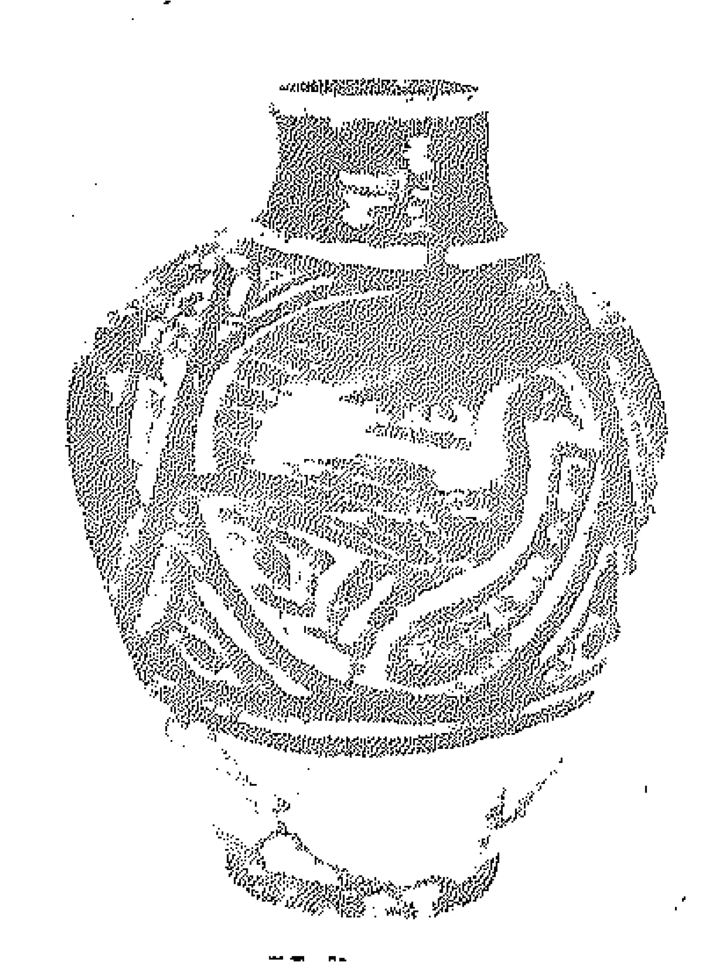
قد تتألف اللوحة من ضربة واحدة .. أو ضربتين .. ونادرا ما تدخل فيها ضربات تزيد عن ثلاث .. لكنها في نفس الوقت تلخص شكلا طبيعيا وتختصره الى أدنى حد ، فاذا بها طائر أو حيوان أو زهرة أو انسان . هذه هى اللمسة السحرية .

ثم وصل الصدر بأسلوب الوحدات الفاطمية غير المحددة بخطوط خارجية الى تكامل فاتن حين استطاع أن يصور أشكاله في رقة بالغة تكاد تمتزج بخلفياتها حين ننظر الى آنية من هذا الطراز لا نتخيل أن عليها رسما معينا حتى نتأملها قليلا . فاذا بالأسماك والطيور والأزهار تنضج وتتشكل أمام عيوننا وكان مبدعها يهمس الينا بمكان وجودها .

هذه الأشكال المهموسة .. وتلك اللمسات السحرية : ليست سوى تطوير وانضاج لأساليب سعد ومسلم ، ووصول بالمنطق الاسلامى الى آفاق ارفع . ان الصدر بذلك يضيف جديدا الى التراث .



طبق ينسب الى مسلم
(متحف الفن الاسلامى)



قدر .. من أسلوب سعد ومدرسته
(متحف الفن الاسلامى)

أما الصدر فمع اتفاقه مع مسلم في المشى التشكيلى المتجه الى التجريد والتلخيص ، نراه يصل الى مزيد من البلاغة التعبيرية . فضربات سريعة بسيطة يقدم لنا طائرا أو حيوانا مناسبا لمساحة الطبق ، مكملا التكوين بضربات اضافية في الخلفية . فبينما اتبع مسلم أسلوب التجويد والحساب ، اتبع الصدر أسلوب الاسقاط الفورى . الا أنه في كل من الوحدات التصويرية الاسلامية والسعيدية طابع خاص يميل الى بدائية التصميم .. هذا الأسلوب التشخيصى الغريب لم يظهر في التصوير الاسلامى قبل القرن العاشر .

علم المصريون الفارسيين كل ما هو رائع في فن الخزف . علموهم أساليب الخزف الصناعى من مادة الكوارتز وخامات زجاجية تشبه خامة الطلاءات مما أسفر عن وحدة أوثق بين الآنية والطلاء الزجاجى .. علموهم طلاءات الأكالين ، فتمكنوا من التصوير تحت الطلاء وعلموهم الكثير .

من هنا نرى كيف اتخذ الفن الاسلامى طابعا عاما في كل مكان مع اختلافات محلية محدودة أحيانا وكبيرة أحيانا أخرى . ولقد بحث سعيد الصدر معظم هذه الأساليب وما زال يبحثها حتى الآن . فدراسة الأساليب الاسلامية وغيرها ، دراسة لأسرار الفن ، تمنح الفنان القدرة على استخدام أدوات التعبير .. الخزف كأى فن آخر ، ما هو الا وسيلة للتعبير عن الذات وعن الحياة .

ان مئات الأساليب الخزفية التى ظهرت عبر العصور . هى المفردات التى يعتمد عليها الخزاف الفنان حين يقدم لنا تعبيرا حرا .. عصريا .. جديدا .. ان معرفة الألوان وتراكيبها والطينات واعدادها والأفران وأنواعها وأغراض كل منها وامكانيات كل عنصر من هذه جميعا على حدة . تتيح للخزاف ان يعبر بالآنية كما يعبر النحات بالتمثال والمصور باللوحة .

وليس غريبا بعد ذلك أن نعرف أن الصدر مصور ممتاز بالألوان المائية ونحات ممتاز أيضا اشترك في نحت واجهة حديقة الحيوان المجاورة لكلية الهندسة .

■ الفنون والزخارف

ذات صباح من شتاء عام ١٩٢٤ ، كان مدرس الرسم بمدرسة فاروق الاول الثانوية يتفقد اعمال تلاميذه اثناء الحصة . وفجأة تسمرت قدماه خلف صبى ربعة .. مفتول العود ، مستغرق في الرسم والتلوين . ادهشته براعة الالوان ورقة الخطوط وجمال التكوين من صبى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . ولم يكن ذلك الصبى سوى سعيد خامد الصدر .

ربت المدرس على كتفه ثم نزع الرسم وثبته بجدار الفصل تجميلا وتشجيعا فكانت لفتة تربوية حقيقية وضعت سعيد على أول الطريق . قرر يومها ان يهجر دراسته الثانوية بأن يرسب في نهاية العام وان يفصل من المدرسة ليضع والده امام الامر الواقع ، حين يطلب الالتحاق بمدرسة الفنون الجميلة التى لم تطلب من المتقدمين اليها انذاك شيئا سوى اجتياز مسابقة الالتحاق . ولو ان سعيد قد أكمل دراسته الثانوية لالحقه والده بالجامعة اسوة بباقى أخوته وفي نهاية العام زين سعيد اوراق الاجابة بالرسوم والزخارف دون أن يكتب شيئا .

لم يغضب الاستاذ حامد لتلك النتيجة السيئة . وحين زاره صديقه يوسف كامل في المساء ، استقر رأى الجميع على ان يلتحق الصدر بالفنون الجميلة تحقيقا لرغبته .

الا انه لسوء الحظ او لحسنه ، كانت مدرسة الفنون الجميلة تنقل مقرها من الجيزة في ذلك العام فقد أحبت احدى بنات أصحاب النفوذ بالجماميز طالبا بالمدرسة فتقرر اغلاقها ونقلها الى شارع خلاط بشبرا وفي الصباح حين صحب يوسف كامل ابن صديقه الى الجماميز لم يعرف المقر الجديد لمدرسة الفنون والزخارف بالحمزاوى هكذا كان اسمها قبل ان تتحول الى مدرسة الفنون التطبيقية ثم .. كلية الفنون التطبيقية .

كانت المدارس الفنية في ذلك الزمان تحت اشراف اجنبى كامل . يستوى الامر في الفنون الجميله والفنون والزخارف .. التطبيقية فيما بعد .. وكان الهدف الاساسى في انشاء هذه المدارس هو رغبة الارستقراطية المصرية في تخريج فنانين محليين يلبون احتياجات القصور من الصور والتماثيل والاثاثات واشغال المعادن بالاضافة الى الترميمات التى تحتاجها من وقت لاخر كذلك استهدفت تخريج مجموعة من المساعدين الفنيين الاكفاء ، لتقديم العون للفنانين الاجانب وأما إن عادت من اوروبا الافواج الاولى من مبعوثى المدارس الفنية ، حتى بدأت المعارك بين المصريين والاجانب للاستيلاء على السلطة الثقافية في ميدان الفن التشكيلي كان المصريون يقاتلون مستندين الى حقهم الطبيعى وادراكهم لمسئوليتهم عن

تراث بلادهم وثقافتها وكان الاجانب يقاتلون مستندين الى الامتيازات الممنوحة لهم في اطار الوصاية الثقافية الاجنبية . لكن قبضة الاستعمار والحكومة لم تكن قوية الى الحد الذى يمنع تقدم شباب المبعوثين العائدين لتحقيق النصر . لان سياسة الاستعمار كانت ترمى الى فتح أبواب الفن والادب أمام الشعوب المستعمرة ، مع اغلاق سبل البحث العلمى والتكنولوجى التى تشكل التهديد الحقيقى لوجوده فالحديث عن سعيد الصدر ، ليس فقط حديثا عن فن الخزف واسلوبه وخاماته وتاريخه . انما هو ايضا حديث عن الوطنية بمعناها التقليدى الذى يهدف الى التمصير والتعريب . وطنية الاستقلال والاعتزاز القومى . وسنرى فيما بعد ، كيف ادار الصدر ورفاقه ، احمد عثمان وعزت مصطفى وغيرهم ، كيف اداروا معارك مظفرة ضد الثقافات المغيرة ، داخل المدارس الفنية وخارجها في الجمعيات ومراكز التجمع .

اربع سنوات قضاها الصدر في مدرسة الفنون والزخارف بالحمزاوى . تخصص خلالهما فيما كان يسمى بالزخرفة . حيث درس الزخارف العربية والآثار الاسلامية ونقل الكثير من رسومها وتصميماتها ، بالأضافة الى دراسة الطبيعة الحية والنجارة . وكان بين مدرسى المدرسة استاذ طيب اسمه الحاج عثمان . كان تلاميذه يحبونه حبا جما ويقبلون يده كل صباح هاتفين صباح يا با الحاج . كانوا تسعة تلاميذ . استطاع الحاج ان يكسب تقديرهم واحترامهم جزاء وفاقا لما بذله من جهد مخلص في تعليمهم كل ما هو جميل ورائع في التراث العربى . كان يصحبهم الى المساجد والجوامع العريقة حيث يرسمون المنابر والمقاعد القديمة والزخارف الجصية والمقرنصات بالاضافة الى المساقط المعمارية من الداخل والخارج وكانوا يدرسون تاريخ الفن الى جانب زخرفة الاثاث وحفر الخشب على الطراز العربى . وكان بين المدرسين استاذ اخر يحفظ له سعيد الصدر توجيهاته الدائمة للاهتمام بدراسة الفن الاسلامى . فكثيرا ما رافق جان بونتيلا الرومانى تلاميذه التسعة الى المتحف الاسلامى لنقل النماذج الرفيعة من مختلف

الآثار العربية . ومن عام الى آخر كان الفتى سعيد يزداد نضجا وازدهارا وتوهجا في عقله وقلبه شعلة الفن ويحظى بتقدير المدرسين والتلاميذ على السواء بتفوقه الدائم ودماثة سلوكه وسرعة بديهيته وانصرافه للدراسة والبحث دون ملل .

ازدادت شخصية الفتى بريقا قبل تخرجه بعام واحد . كان عمره انذاك ثمانية عشر عاما فقط حين اشترك في صالون القاهرة بثمانية مناظر للطبيعة ظفرت باعجاب النقاد والفنانين . والواقع ان هذه المناظر الطبيعية التى مازال الصدر يصورها بالالوان المائية حتى الان تتميز بالشفافية ورقة التعبير وسرعة الاداء والاسقاط الفورى الحار الذى يغمر بحيوية من نوع خاص وقد يكون حبه للالوان هو الذى دفعه الى رحلاته الاسبوعية خلال سنوات الدراسة الى اطلال قايتباى والدراسة بحثا عن شظايا الخزف الاسلامى وما تحمله من الوان خلابة وصور طريفة وتصميمات بسيطة .



آنية بالألوان المعدنية عام ١٩٣٠ تصميم وتنفيذ الفنان الصدر

في صالون القاهرة سنة ١٩٢٧ ، بيعت لوحات الطالب سعيد الصدر جميعا . كانت اثمانها مرتفعة نسبيا في ذلك الوقت اذ بلغ سعر الواحدة ثلاثة جنيهات . كانت دفعة قوية زادت من ثقته بنفسه وامدته بقدرة على الاصرار والعمل والمضى في السبيل الي اختياره لنفسه والذى بدأت تتضح معالمه سنة بعد أخرى .

في نفس العام .. تغير الناظر الانجليزى لمدرسه الفنون والزخارف وحل محله انجليزى ، اخر



آنية من الخزف الحجري تصميم وتنفيذ الصدر عام ١٩٦٠ منفذة بالمواد المحلية

اسمه جون ادني . وكان القدر قد ارسله الى المدرسة قبل تخرج الصدر بعام واحد ليرعى عبقريته ويتيح لها فرصة الانطلاق النهائى . فقد كان جون ادنى مهندسا ومزخرفا ومصورا . جاء الى المدرسة وقد اعد خطة لانشاء اقسام جديدة لفنون الزجاج والحديد .. والخزف ، عن طريق ارسال بعثات من الخريجين الى اوروبا ليتخصصوا في كل من هذه الفروع الفنية . هكذا بدأت مجموعة من العوامل الشخصية والاجتماعية تتضافر لتمهد الطريق الذى سيمضى فيه سعيد الصدر في مستقبل الايام .

الولـــــد الـرابـــــع

في عام ١٩٢٨ ، انهى سعيد الصدر سنواته الاربع بمدرسة الفنون والزخارف بالحمزاوى . كان ترتيبه الاول كالعادة بين زملائه التسعة . وظفرت شهادة تخرجه بتعليق بسيط بليغ في نفس الوقت ، من جون ادنى .. الناظر الانجليزى للمدرسة كلمتين فقط : ولد رائـع وفي مكتب النـاظـر اصطف طابـور الدفعة الجديدة ، ليسأل كلا منهم عن العمل الذي يفضل الالتحاق به بعد التخرج . وكان شكري راغب ـ مدير مسرح الأوبرا السابق ـ يعمل كاتبا بالمدرسة في ذلك الوقت ، ويقوم بترجمة الحوار بين الناظر وتلاميذه .

أعرب الخريجون عن رغباتهم فمنهم من أراد أن يعمل مهندسا ، ومنهم من استهوته مهنة التدريس وتابع المترجم نقل الرغبات الى الناظر حتى جاء دور سعيد فقال : كيف أعمل وأنا لا أعرف شيئا ؟ أريد ان ابقى بالمدرسة لا تعلم لانني اشعر انني لم اتعلم بعد . وماكاد فكرى راغب ينتهي من الترجمة حتى انبسطت أسارير الناظر والتفت قائلا : اكتب اسمه .

للصدفه . كان جون ادنى يعد لتنفيذ خطته لتطوير اقسام المدرسة كان ينتقى من بين الخريجين من يناسب الاقسام الجديدة ليرسله الى بعثة خارجية . هكذا تقرر يومها أن يرحل سعيد بعد عامين الى انجلترا لدراسة فن الخزف . ذلك الفن الذى لم تسبق له دراسته ، والذى لم يعرف عنه سوى اسمه .. وتلك الشظايا التى كان ينتقيها من اطلال قايتباى والدراسة . كانما كتب عليه ايامها ان يعيش ما بقى له من عمر ، مع الشظايا .. والالوان .. والطينات . والطلاءات والاحلام .. كانما شيء ما بداخله . قد استجاب لنداءات خاصة ارسلتها تلك الشظايا المهملة منذ أن انطفأ آخر فرن للخزف الفنى سنة ١٧٥٧ م « ١١٧١ هـ » .

يحسن هنا أن نسوق القرائن استدل بها الباحثون على تاريخ توقف آخر افران الخزف الفنى المصرية عن الاشتعال . حتى ظهور سعيد الصدر . أى طوال ١٧٤ عاما « ١٧٥٧ ـ ١٩٣١ » .

جاء ذكر هذا التاريخ في كتالوجات المتحف الاسلامى التى أعدها وكتب مقدمتها باللغة الفرنسية ماكس هيرز الامين السابق للمتحف . اخرج ماكس ، الاول سنة ١٨٩٥ والثانى سنة ١٩٠٣ ، وكلاهما محفوظان لدى الباحث الاستاذ سعد الخادم .

يقول ماكس هيرز نقلا عن المؤرخ الفرنسى بريس دافينيه من القرن التاسع عشر ، ان الخزف الشرقى في اواخر الحكم العثمانى . تأثر كثيرا بما يسمى بخزف كوتاهية ، وهى مدينة صغيرة في آسيا الصغرى اشتهرت بطراز خاص من البلاطات الخزفية تنسب اليها « كما

كانت تنسب البلاطات الى مدينة قاشان في منتصف القرن الحادى عشر . ومن الجدير بالذكر أن الذين أقاموا صناعة بلاطات القاشانى في ذلك الزمان هم الاتراك السلاجقة الهابطين من وسط آسيا الى ايران بدعوى حماية الخليفة العباسى »

برع المصريون تحت الحكم العثمانى في تقليد بلاطات كوتاهية ، التى تتميز بالوحدات الزخرفية ذات الطابع الهندسى . وشاع استخدامها في جدران المبانى المعمارية بالوجه البحرى خاصة في مدينة رشيد . ويلاحظ أن جميع المساجد التى أقيمت في القاهرة في ذلك العصر ، كانت محلاة ببلاطات كوتاهية وبالحليات الخزفية . لكن لكن سرعان ماتدهور هذا الفن وفقدت الزخارف طابعها المميز وابتعد الانتاج عن الجودة ومازالت الأمور تسير من سيء الى أسوأ حتى توقف الانتاج تماما واعتمد الولاة عن استيراد الخزفيات الايطالية وآية ذلك أنه في مسجد السيدة نفسية بالقاهرة ، محراب محلي ببلاطات القاشاني المصري من بينها واحدة كتب عليها اسم صانعها وهو ـ عبد الكريم الفاسي ، الذي كان يطلق عليه اسم ، الزارغ ، وبجواره تاريخ يشير الي عام ١١٧١ هـ الموافق ١٧٥٨ م .

والذى يؤكد أن هذا التاريخ يحدد انطفاء آخر أفران الخزف المصرية عن العمل ، تلك البلاطة الخزفية المجاورة لبلاطة عبد الكريم الفاسى ، فهى مستوردة من أوربا وتم تركيبها بعد أربعة عشر عاما فقط من تاريخ البلاطات الاولى لتحل محل بلاطة أصلية تالفة مصرية جديدة بدل التالفة الامر الذى استدعى احضارها من أوروبا .

كذلك الحال بالنسبة للجدران الخزفية لسبيل السلطان مصطفى الذى أقيم سنة ١٧٥٩ م ـ بعد محراب السيدة نفيسة بعامين فقط ـ ذلك أن ترابيع القاشاني جميعا مصنوعة في ايطاليا ومستوردة عن طريق اليونان . ويبدو ان ايطاليا خلال القرن الثامن عشر تبينت حاجة الدول العربية الى استيراد الخزفيات فعمدت الى مسايرة الذوق الشرقى حتى غمرت الأسواق العربية ومن بينها مصر ، بالمنتجات الفنية الايطالية .

هكذا نرى ضخامة المسئولية التاريخية التى حملها الصدر بأمانة منذ عودته من لندن حتى الآن . والنضال المر الذى يتزعمه في مواجهة القوالب الايطالية التى مازالت تغمر فترينات الخزف في عواصم الدول العربية وفي طليعتها القاهرة .

بعد ان تخرج سعيد في الفنون والزخارف ، كان علية أن ينتظر عامين حتى يحين موعد سفره الى انجلترا . وخلال العامين كانت الاحتمالات كثيرة لتغيير مسيرة الرائد . فقد عينته احدى الجمعيات الامريكية في عمل بفلسطين لتسجيل الاثار . كان المرتب مغريا . والسفر ممتعا خاصة في سن الشباب والاقامة كاملة على نفقة الجمعية وكأنما تلك الدعوة محاولة من الظروف المضادة للانحراف بالرائد عن الهدف المنتظر الا ان الصدر رفض العرض وصمد في رفضه وأعاد للجمعية النقود التى كان قد أخذها تحت الحساب . وفضل على كل ذلك ان



انية باللون الاحمر المعدني والطلاء الفيروزي تصميم واخراج الفنان الصدر عام ١٩٦٩

يعمل مدرسا للرسم والحساب وضابطا أيضا « أي مشرفا على مدرسة ابتدائية بمدينة اسوان التى كان الموظفون يعتبرونها منفى في ذلك الوقت .

وفي اسوان . بجوار النهر الخالد يقضى الساعات الطوال مصورا بالوانه المائية حتى شحنته الطبيعة بطاقة تلوينية هائلة تتفجر أماراتها على اوانيه التى تتميز عن غيرها بالوانها الفريدة ومن طريف ما يرى ان الصدر كان يترك المدرسة والفصول والتلاميذ ويأوى الى ضفة النهر حتى يرسل الناظر في أثره الفراشين والعمال فيرفض العودة ويواصل الرسم والتلوين .



آنية باللون الأحمر المعدني تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٦٠ من مقتنيات متحف الفن الحديث

قضى الصدر العامين اللذين سبقا البعثة في الرسم وعزف الكمان فقد تعلم على يد خاله ، حامد بشير الذى تعلمها بدوره على عازف شهير في ذلك الوقت اسمه محمود مراد أما حامد بشير فكان يعمل في ميدان التربية الفنية الى عهد قريب وكان قد سبق ابن شقيقته الى لندن حيث التقيا فيما بعد .

وقبيل انتهاء العامين استدعى سعيد الى القاهرة ليستعد للرحيل الى انجلترا . وكان على رأس التعليم الصناعى مراقب عام اسمه ـ احمد فهمى القطان . كان عنيف السلوك بوجه عام . يقول عن نفسه انه كالسيف . مشحوذ وباتر لكى يبدو انه كان يسوف ويطيل الاجراءات الروتينية . بينما سعيد الصدر دائم التردد والالحاح . وذات مرة . الح في الدخول الى مكتبه فسمح له . ثم جرى الحوار التالى .

سعيد ـ سلام عليكم

المراقب لا يرد ولا يرفع عينيه عن الاوراق التى يتظاهر بالانشغال بها .

سعيد ـ لماذا لا ترد ؟

المراقب ـ ماذا تريد ياكلب ؟ انت كالكلب الذى يمسك بالعظمة في فمه فلا يتركها ابدا .

لم يرد الشاب سعيد على تلك الكلمات النابية . اذ يبدو ان الرجل كان يريد استفزازه لامر مالكنه كان رجلا عظيما رغم ذلك استدعى الصدر قبل سفره مباشرة وسأله صائحا : هل تعرف لماذا انت مسافر ؟ أجاب الصدر : لا فقال وهو يتفجر غيظا : انت ذاهب لتكون مسئولا عن بناء مصانع الخزف والصينى عند عودتك .

■ الصدفة .. والوحي .. والإرادة

في صيف ١٩٢٨ غادر سعيد مكتب مراقب عام التعليم الصناعي بوزارة التربية ، وظلت كلماته الصارخة تطن في اذنيه : انت مسئول عن بناء المصانع .. انت مسئول عن الخزف . وظل يتساءل طوال الطريق عن تلك المسئولية الضخمة وكيف يستطيع ان يتحملها . لم يجد أمامه سوى سبيل واحد : العمل . والعمل .. والعمل . لا يضيع دقيقة واحدة .

وهذا ما حدث بالفعل منذ مغادرته ارض الوطن حتي عودته في ٢٢ يوليو سنة ١٩٣١ . بعد تخرجه في مدرسة كمبرويل في لندن رفض أن يبقي مساعدا لاستاذه ، رغم أغراء العرض السخي . كانت كلمات مراقب التعليم المصرى دافعا له الي العمل بالطينات المصرية في قلب لندن استوردها خامات وصدرها الي مصلحة الكيمياء المصرية مشغولات خزفية تتطلب الفحوص والتقارير ..

حدث شيء هام في منزل الاسرة بالسكاكيني قبل مغادرة الصدر القاهرة الي لندن . سأله والده : هل تعرف بيت عمك ؟ فتوقف سعيد عن اعداد أوراقه ونظر الي والده مندهشا واجاب : نعم . لماذا ؟ فاردف الوالد : اذهب لتحضر درية ابنة عمك لتتناول معنا طعام الغداء .. لم يدرك سعيد « ١٩ سنة » سببا واضحا لتكليفه بتلك المهمة .. لكن درية كانت فتاة جميلة رقيقة هادئة تتخطي عامها الثالث عشر . لم يخطر بذهنه أن والديه قد اختاراها له خطيبة قبل أن يرحل الي انجلترا لم يكن قد راها سوى مرة واحدة .. وكان الكلام كثيرا حول ارتباطها بأبن عم والدتها الذى نشأمعها .. علي أى حال ، استمرأ سعيد الجلوس الي جوارها حول مائدة الغداء ، وأخذ يحس بما يدبره الوالدان .. وفي العصر .. صحبها الي الترام ليجلسها في ديوان السيدات ويبتاع لها تذكرة كما كانت تقضي التقاليد .. واصبح معروفا بعد ذلك انها خطيبته . وحين سافر الي لندن كان يضع صورتها علي مكتبه في غرفته الخاصة طوال سنوات البعثة . وبعد عودته الي أرض الوطن ببضعة شهور تم الزواج في التاسع من فبراير ١٩٣٢ .

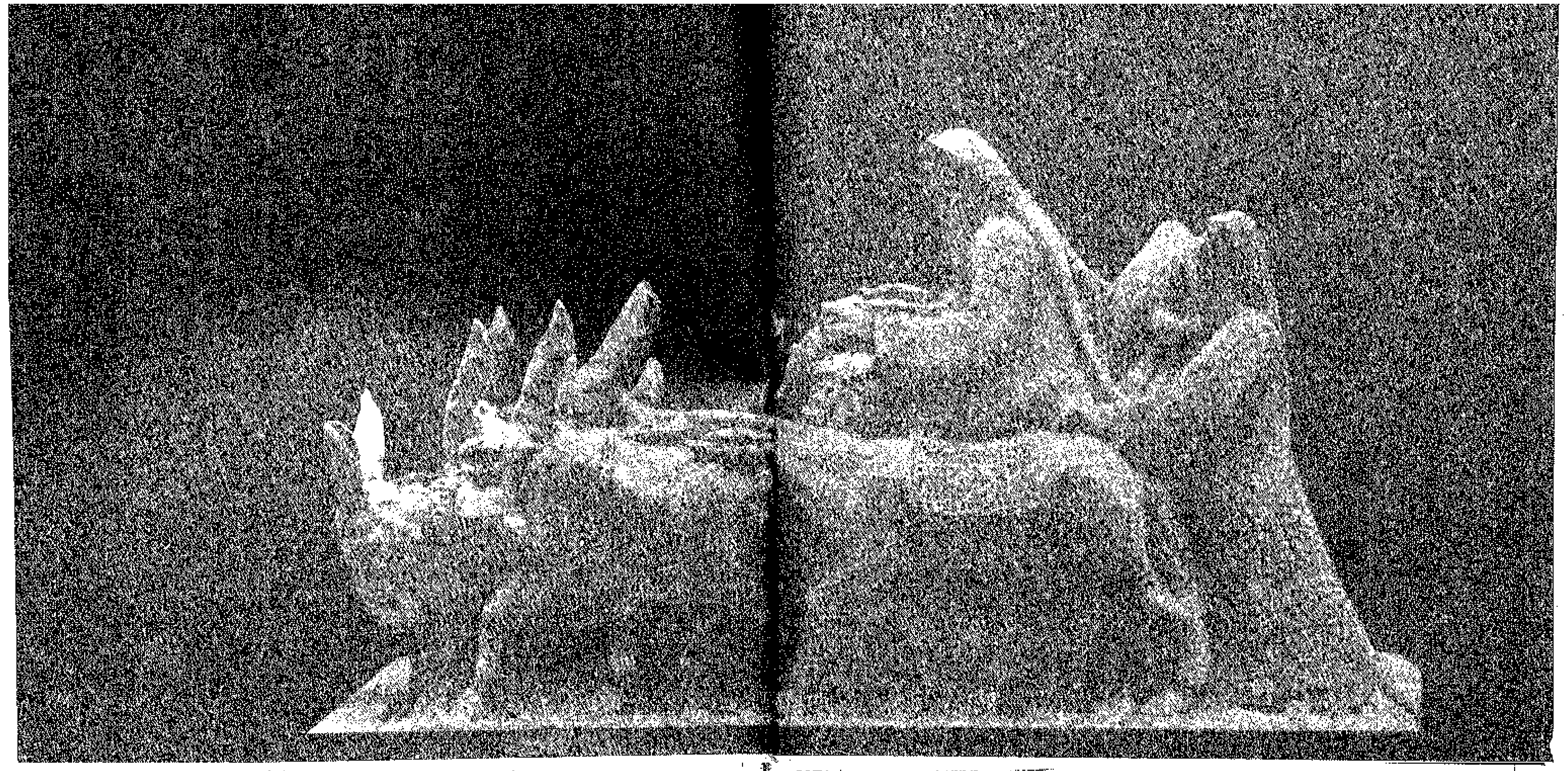
يقول سعيد الصدر : كل الفضل في نجاحي ومقاومتي للظروف المحيطة منذ عودتي حتي الان انما يرجع الي زوجتي . كان من المحتمل الا تكون علي هذه الدرجة الرفيعة من الطيبة والود والصفاء والرضا والقناعة . لكن الصدفة وحدها هي التي اهدتني اياها لاني لم اكن



.. مهما قيل عن السلوك العلمي للافراد في الحياة ، تتجمع احيانا عدة مصادفات سعيدة لتمنح البشرية فردا ممتازا من ابنائها . واذكر كلمة قالها رومان رولان « ١٨٦٦ ـ ١٩٤٤ » اديب فرنسا العظيم عن مكسيم جوركي « ١٩٣٦ » كاتب روسيا العملاق .. قال : كان جوركي كالنبت التلقائي الصغير علي درب تدوسه الاقدام .استطاع ـ رغم الاف المارة ـ ان يشق طريقه الي الحياة . كذلك كان سعيد الصدر .. اعترضته في حياته مئات الاسباب الوجيهة التي تصلح لتشكل عوائق دون حمل الرسالة التي شاءت الاقدار ان يحملها . لكنها جميعا ، وبدون استثناء ، كانت تتداعي لاوهي الاسباب ، ولمجرد الصدفة في معظم الاحيان .. أو لان سعيد ـ لامر ما ـ لم يتصرف كما يتصرف باقي الناس في مثل تلك المواقف ..

يحسن هنا أن نشير الي بعض تلك التصرفات « غير العادية » التي انطبع بها سلوك الفنان منذ الطفولة .. ويصف علماء النفس سلوك الفرد بأنه « غير عادى » أو « شاذ » اذا كان غير متجانس مع سلوك معظم الافراد في بيئة معينة ازاء موقف محدد . فحين عبث سعيد الصدر عن عمد بأوراق أمتحان المدرسة الثانوية كان شاذا . وحين انطلق وحيدا الي اطلال الدراسة وقايتباى يجمع شظايا الخزف الاسلامي كل أسبوع ، كان مختلفا عن اقرانه لاعبي الكرة الشراب في الشوارع والحوارى . وحين تخرج في مدرسة الفنون واختار زملاؤه التسعة وظائفهم كل وفق احلامه ، وفضل هو مواصلة التعليم ، كان شاذا . وسنرى فيما بعد أن سلوكه في كل مراحل حياته كان ذا طابع خاص ، هو طابع سلوك الرواد الذين حددوا لانفسهم هدفا يختلف عن اهداف الحشود من المواطنين . فالحياة مسرح هائل يلعب علي خشبته قلة من العلماء والفنانين والفلاسفة ، بينما يجلس باقي الناس في مقاعد المتفرجين . وكان سعيد الصدر فتي أول يشارك رواد عصره في تسجيل صفحة مضيئة في سجل الحياة ..

.. من الملاحظ عبر التاريخ ، ان كبار الفنانين يتسمون بالشذوذ الذى قد يصل احيانا الي حد الجنون كما تعرف عن فان جوخ المصور الهولندى وقد كتب عدد من الباحثين حول العلاقات الاكيدة بين العبقرية والسلوك الاجتماعي غير العادى .. فقال افلاطون عن الشعراء انهم يتغنون بروائعهم وهم في غيبوبة .. واكد أرسطو أنهم مرضي بالعصاب . وفي القرن التاسع عشر اثبت الاطباء أن العبقرية مرض يصحب نوبا نوع من الهبوط النفسي الشديد . والحقيقة أن الابداع الفني ذاته نوع من السلوك الانساني الشاذ الذى ينجم عن حالة خاصة تنتاب الفنان يقال عنها : الوحي .. أو الالهام .. وتكون احيانا نوعا من التجلي يتيح للفنان أن يصل الي نتائج مباشرة عن غير طريق المنطق والاستقراء .. ويصف نيتشة حالة الالهام هذه بكلمات غريبة فيقول « وفجأة . تشتعل عندك فكرة كما يشتعل البرق . ثم تفرض نفسها عليك بحيث لا تترك لك أى فرصة للتردد حول الشكل الذى تعبر به عنها . انها نشوه ذات ضغط فظيع . ومنذ بضع سنوات عبر جان برتيليمي عن الالهام والوحي تعبيرا موفقا للغاية فقال « الأمرهنا أشبه ما يكون برسالة توجه الينا . أو بضوء يتكشف لنا . أو بفكر عظيم يتفضل بزيارتنا » . وبرتيليمي في كلماته هذه يرتقي بشخصية الفنان الي درجة النبوة ، بل أنه



تمثال فخار من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر ١٩٤٩ تمثل العودة من السوق من مجموع متحف محمد محمود خليل

افصح عن ذلك صراحة حين استطرد « أن الانسان لتغمره قدرة الابداع حتي يصبح علي صلة بالله » . من هنا تلاحظ أن الفنانين منذ الصغر يتسمون بسلوك متميز . معظم الناس يستجيبون للمواقف المحددة بأشكال سلوكية محددة ماعدا الفنان ، فهو في لحظات الابداع يتكلم .. ويفكر .. وينتج . وكأن شخصا آخر هو الذى يتصرف في تلك الاوقات ..

بعض السيكولوجيين القدامي مثل الامريكي « بيران وولف » . يظنون أن الفنان الذى تنتابه حالات الالهام والوحي بهذه الطريقة مريض يجدر به أن يزور طبيبانفسيا! . ويقول بودلير صاحب « أزهار الشر » : ينحصر الوحي في أن نعمل كل يوم أما رودان . النحات الرومانسي العظيم فقال : لا تعتمدوا علي الوحي فهو غير موجود . والصفات الوحيدة للفنان هي الحكمة والانتباه والاخلاص والارادة : وتمشيا مع هذه الاتجاهات المادية قال أندريه جيد : العبقرية كفاءة متوسطة . وجهد اثنتي عشرة ساعة يوميا . وربما يصدق ذلك علي حالات نادرة بين الفنانين من بينهم المصور الانجليزى تيرنر الذى لم يكن عبقريا بقدر ماكان بارعا نشطا عكوفا علي عمله يستلهم اسلافه ومعاصريه من مصورى المناظر الطبيعية ...

هكذا اذا القينا نظرة علي شخصية سعيد الصدر . نلمح اثر الوحي والبصيرة في سلوكه وتفكيره وابداعه . ولكن لا يفوتنا في نفس الوقت ان نلاحظ أنه قضي عشرات السنين . بادئا من عام١٩٢٨ حتي الآن . لم يتوان فيها لحظة عن العمل المتواصل والبحث والتجريب والتفكير والابداع الخزفي . واذكر مرة اني سألته لماذا يحطم أوانيه ؟ فأجاب : لكني افسح مكانا لغيرها فالتوقف عن الابداع الخزفي بالنسبة لي ... هو الموت ..

■ مجد المرأة .. ومجد الرجل

أما درية الصدر ـ ابنة عمي ـ فلم ارها قبل سفر سوى مرة واحدة . لكن صورتها بقيت ماثلة أمامي طوال السنوات الثلاث التى قضيتها في لندن .
وكانت صورة رقيقة الى ابعد ماتتصور بالنسبة لى

وكانت صورة رقيقة الي أبعد ما تتصور بالنسبة لي كان عمرها حين تركتها حوالي اثني عشر عاما .. ظلت في خيالي وظللت أتوق الي اللقاء بها .. وكانت كالمسيح الذي يحبه المسيحيون ولم يروه وينتظرون نزوله من السماء .

هذه الكلمات مقتبسة من يوميات سعيد عن زوجته . والواقع أنها جديرة بأن نروى بعض انطباعاتها على حياة الصدر لانها شريكة حياته .. وكفاحه .. فالمرأة في حياة الرجل عامل حاسم . ومن المصادفات السعيدة ان تقترن حياة صاحب الرسالة بحياة فتاة تعرف دورها معه .

بعد أن عاد سعيد الصدر من لندن في يولية سنة ١٩٣١ قررت له وزارة المعارف العمومية مرتبا شهريا قدره سبعة جنيهات نظير قيامه بالتدريس في مدرسة الفنون التطبيقية . اعترض سعيد على هذا المرتب الضئيل ورفض استلامه وظل يمارس عمله رغم ذلك قرابة العام ماشكل عقبة في انجاز الزواج بفتاة الاحلام .. لكن .. سرعان ماارتفع المرتب الى اثنى عشر جنيها مع صرف خمسين جنيها فورا خصما على الحساب المتجمد .. وكان هذا اول مبلغ كبير يصل الى جيب الفنان الشاب وهو يجتاز عامه الثانى والعشرين .

وبين الاقدام والاحجام مد الفتى يده الى والده هامسا في حرج :

ـ هاهو المهر ..

كان العيب كل العيب ان يناقش الولد وليس معه من النقود مايغطى تكاليف المناسبة السعيدة .. لذلك تناول الوالد النقود في صمت .. وامتد الصمت لبضعة اشهر حتى اتمت درية عامها السادس عشر بالضبط .. هنا خرج الوالد عن صمته ومال على اذن الفتى سعيد هامسا :

ـ استعد للسفر الى كفر الدوار . لكن .. قل لهم اننا ذاهبون الى الموسكى .

شيء غريب حقا اسلوب الزواج في تلك الايام الخالية .. كانت درية في بلدتها كفر الدوار في ذلك الوقت . ولم يشأ الاستاذ حامد أن يعلن الامر فاشاع انه ذاهب مع ولده لشراء بعض الحاجيات من شارع الموسكي . وما ان بلغا بيت العروس في كفر الدوار حتى كتب الكتاب ، ليعودا في المساء وفي صحبتهما العروس .. درية .. عادوا الى القاهرة فمرت الايام حتى صنعت عاما قبل ان يتم الزواج الفعلى في حجرة خاصة بمنزل الاسرة بالسكاكينى . واليك سطور اخرى من يوميات الفنان :



تمثال خزفي من تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٤٨ من مقتنيات متحف الشعوب في روما

درية .. زوجتي وابنة عمي كانت مثالية في كل شيء . صادقة .. مؤمنة .. متدينة .. كانت لى الزوجة والام وكل شيء . كنت أكبرها بخمس سنوات , وفي عام ١٩٥٢ دخل منزلنا ذلك الغول الذى تحتار في مقاومته البشرية ، السرطان .. ظلت تكافحه ستة عشر عاما . وانا أكافحه معها .

ثم رحلت فتركت فراغا كبيرا في حياتى ..

الحقيقة ان الصدر لم يدخر وسعا في الذود عن حياة شريكة حياته عرضها على كبار اطباء لندن بين وقت واخر . وكذلك الحال مع اطباء مصر . وكان يبتاع الدواء بالعملات الصعبة بكميات تكفى لفترات طويلة من العلاج .

وذات يوم اوشك الدواء ان ينفد وفشلت جهود الزوج المخلص في الحصول عليه من مصر . وفشلت جهوده في توفير العملة الصعبة لشرائه من لندن فأرسل للطبيب المعالج هناك يشكو له محنته . وبرجوع البريد وصلت كمية الدواء .. وفي أول فرصة سافر فيها الفنان .. سدد ديونه للطبيب الانجليزى .

في عام ١٩٦٨ رحلت السيدة العظيمة .. وتركت فراغا هائلا في حياة زوجها .. ولم يجد الصدر مهربا من ذلك الفراغ الا في الصومعة .. في المحراب .. في الورشة بين اطلال الفسطاط ، حيث كان يعمل ليل نهار . وذات يوم في الشتاء التالى لرحيلها كنا عائدين من الورشة في عربته الفولكس القديمة التى يستخدمها فيما تستخدم فيه عربات الجيب .. أوقف العربة فجاة ثم بادرنى :

ــ اسمع .. ساقرأ عليك شيئا .. قل ماتشاء ولكنى ساقرؤه ..

ثم اخذ يعبث في جيوبه حتى عثر بورقة مطوية في عناية ، شرع يقرأ منها كلمات من الشعر المنثور ، ليست جيدة والتركيب، ولكنها تعبير عميق عن الشرخ الذى أصاب قلب الفنان بعد أن غادرته رفيقة عمره شعرت يومها ان كلماته تولول بالشكوى من الوحدة .. والظلام وانصراف الناس .. كل الناس .. أخذتنى كلماته لبضعة لحظات الى الفراغ الرهيب الذى كان يحيا فيه من بعدها .. صحيح ان الابناء يؤنسون الوحدة ويزيلون الوحشة . لكن كلا منهم قد استقر في منزله الخاص .. وهناك مشاعر لا يجوز للاباء أن يبثوها الابناء .. فمهما شب الصغار ، لا يعتبرون انفسهم كبارا بالنسبة لهؤلاء الذين منحوهم الحياة ذاتها ..

اننا حين نكتب عن شريكة الصدر انما نذكر الكلمات البليغة التى أرسلها الى زوجته في احدى المناسبات . قال يشرح دور المرأة مع الرجل : ان مجد المرأة .. في مجد الرجل .

أى أن المرأة تصبح عظيمة ، اذا استطاعت ان تبنى عظمة الرجل . ولا توجد بين صفحات التاريخ سيرة رجل عظيم ، لا تتخللها سيرة المرأة التى شاطرته الكفاح والنجاح .

والفنان كما نعرف ــ أى فنان ــ غريب الاطوار .. مزاجى السلوك .. فيه نوع من الانطواء والاستغراق الذاتى ... سألته مره :

ــ جرت العادة أن تقع المشادات بين الازواج بشكل ما . كل حسب بيئته وثقافته . الم تحدث بينكما مشادات من أى نوع ؟ وكيف كان ذلك ؟

أجاب : طبعا كانت تحدث بيننا مثل هذه الاشياء .. لكنها كانت تتخذ شكلا غريبا . كنت اقول لها « من فضلك . باتشاجر الان . سأصيح واضرب بيدى على المنضدة وربما احطم شيئا . فلا تتضايقى ولا تحزنى . فلا بد ان افعل ذلك لانى احس بالضيق .. وبعد ان



آنية باللون الأحمر والفضي المعدني علي طلاء أسود تصميم واخراج الفنان الصدر عام ١٩٤٩

أقوم بهذا الدور كنت اشعر بالراحة التامة .. وكانت تحتملنى ولا تفارق البسمة شفتيها ..

ثم استطرد وهو يتأمل الهواء هامسا ،

ـ كانت ملاكا ..

بعد عشر سنوات من الزواج ، كان الصدر ساهرا في بيته ذات ليلة يكتب يوميات ابحاثه عن الخزف ويخطط برامج الدراسة لتلاميذه .. تسللت درية ذاك المساء الى مكتبه وجلست الى جواره وقد اراحت رأسها على كفيها وسألته وقد اكتسى وجهها بشبح ابتسامة ، الا توجد قصة حب في حياتك ؟ وفي سرعة خاطفة حاول الصدر أن يكشف سبب سؤالها .. ربما كانت تلك الخطابات التى تصله من لندن بين وقت وآخر ، وهدايا الاطفال التى بدأت تتوالى بعد مقدم الطفل الاول .. حامد . أو لانها شاهدت عفوا بين أوراقه الخاصة صورة فوتوغرافية لفتاة شقراء



الفنان الصدر واجدي زميلاته يبنيان الفرن عام ١٩٣٠ أثناء دراسته بلندن

جميلة .. كتب خلفها بالانجليزية : الى سعيد .. من جويس جاكسون . لكنه لم يتردد مثيرا و
وروى لها كل شيء عن علاقته بالفتاة الانجليزية . لم يكن يخفى عن زوجته شيئا على
الاطلاق .. وبعد ان انصتت الى التفاصيل . اصرت على تعليق صورة الفتاة على جدار الغرفة
بين الصور العائلية . ويعلق الصدر على ذلك متمتما : كم زادت عندى حبا وتقديرا بعد تلك
الليلة .. كانت رحمها الله واسعة الافق . واقعية التفكير وليس لى الآن الا ان اعيش على
ذكراها . لم تكن لها رغبات خاصة . لقد تركت لى كل الوقت .. واصبحت تتذوق فن الخزف
الى الحد الذى تعشق فيه أحد الاواني التى ابدعها فلا تفرط فيها بأى ثمن .



الفنان الصدر يعمل في استوديو ليتش بانجلترا عام ١٩٣٠ .

■ لندن تستقبل الرائد الصغير

في مطلع شهر يناير سنة ١٩٢٩ ، نشر الضباب غلالة بيضاء على مدينة لندن العريقة ، كأنما يعدها لاستقبال فتى مصر : سعيد حامد الصدر . في ذلك الوقت وصل سعيد الى عاصمة بريطانيا حاملا في حقيبته حشدا من الآمال العريضة والاحلام الوردية ، ليس بينها ما يتعلق بأطماع شخصية . كانت تدور جميعا حول الخزف المصرى الحديث ، الذى اختفى من مسرح الفنون العربية قرابة قرنين من الزمان ..

هناك .. التقى بخاله حامد بشير ليقضي في بيته بضعة أيام اسلم نفسه بعدها الى المسئولين الذين وجهوه الى مدرسة في بلدة صغيرة بجوار العاصمة ، تعتبر من أكبر مراكز صناعة الخزف في المملكة الا أن تلك المدرسة ، كانت ملحقا صغيرا بأحد المصانع ، لا يرقى مستواها الأكاديمي عن الفنون والزخارف بالحمزاوى بالقاهرة .

بعد أسبوع واحد ، اكتشف سعيد أن الدراسة هناك لا تشفى غليله ولا تشبع طموح روحه المتطلعة الى آفاق رحيبة تناسب الدور الذى ينتظره في القاهرة ، والذى أعلنه مراقب التعليم الصناعى قبل سفره بيومين . كان سعيد يستهدف علما واسعا وخبرة عميقة يكفيان لتشييد مصانع الخزف والصينى في مصر . كما أوصوه .

كثيرون من الشباب ــ خاصة في سن العشرين ــ يرحبون بما يتاح لهم من فرص للسفر الى الخارج ، ولا يرون فيها الا مناسبة لتحقيق احلام المراهقة المتأخرة ، ولا يستهدفون منها سوى أمتاع العين والنفس بقدر ما تسمح به الظروف الجديدة . وتحت هذه التأثيرات ، يقبلون ما يمنح لهم على علاته دون قيد أو شرط ودون السعى الى أفكار جديدة ومثاليات حضارية وثقافات متقدمة تشكل الفوارق الجوهرية بين الانسان والحيوان .

كثيرون من الشباب لو كانوا في موقف سعيد الصدر لاكتفوا من الغنيمة وما يتصدق به عليهم أولياء الأمر ، خاصة وأن الادارة المصرية كانت تعارض سفره الى لندن بسبب اعاقته البصرية ، لولا أن الناظر الانجليزى جون ادنى ــ وكان مسموع الكلمة انذاك ــ أصر على سفر « الولد الرائع » كثيرون كانوا يبتهجون بالسفر الى انجلترا والاقامة لعدة أشهر أو سنوات على نفقة الدولة .. فالثقافات المتقدمة مثيرة ومغرية ، خاصة وان بريطانيا في ذلك الزمان ــ قبل الحرب العالمية الثانية ــ كانت تمثل قمة الحضارة الأوروبية .

ألا أن الفتى سعيد كان عبقرية تعرف طريقها وقدرتها على الانجاز . كان لديه من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة ما يتيح له معرفة الدور الموكول اليه . مثل هذا الطراز من البشر لا يقبل المسلمات ، ولا يرى في العقبات إلا أشياء توجد للتغلب عليها أما الواقع .. فلا بد من تغييره والا حكمنا على أنفسنا بالخمول والركود والموت .

هكذا .. رفض سعيد الصدر المدرسة التى ألحقوه بها في مدينة الخزف ، وتوالت خطاباته لادارة البعثات بالقاهرة أن ينقلوه الى معهد عال ذى مناهج يستطيع ان يفيد منها بما يعاونه على تحقيق الاهداف التى أسندوها اليه الا أن صيحاته ضاعت في الهواء ، فلم يجد بدا من اعلان مبادرة جديدة ، فشد الرحال الى لندن ، الى بيت خاله ، معلنا الاضراب ، اما أن ينقل الى معهد عال وأما العودة الى أرض الوطن .

وكانت آخر صيحاته رسالة مقتضبة تشبه رسائل السفن المشرفة على الغرق ، أرسلها الى جون ادنى ناظر الفنون والزخارف بالحمزاوى ، بالقاهرة وقد بذل أدنى بالفعل عدة محاولات لدى الادارة المصرية ، دون جدوى فبادر باجراء شخصى على مسئوليته وأرسل الى لندن يحول



الفنان سعيد الصدر عام ١٩٣٠ في منزله في لندن .

« الولد الرائع » الى معهد كمبرويل . ونجح سعيد في تحديد المنطلق الذى يبدأ منه في انجلترا .

لم يكن الفتى سعيد من الطراز الذى يترك الأمور تجرى في أعنتها .. استطاع وهو دون العشرين من عمره أن يرفض الوظيفة سواء داخل مصر أو خارجها . وبينما كان الجميع في عام ١٩٢٨ يعتبرون مدينة أسوان منفى الموظفين . طلب سعيد أن يعمل فيها حالما بالحياة في احضان الطبيعة . وحين رحل الى بريطانيا رفض المدرسة التى ألحقوه بها وانتقى المعهد الذى يحقق أهدافه . سلسلة من الرفض والقبول . كان سعيد الصدر ينظم حلقاتها منذالصغر كأنه ربان ماهر يخوض غمار بحر الحياة .

لم يكن يعارض الظروف لمجرد المعارضة . بل ساعيا خلف الاحلام . فما كاد يلتحق بمعهد كامبرويل حتى قضى عامين كاملين في العمل الجاد دون أضاعة دقيقة واحدة كان يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا . ويبقى بالمعهد بعد أن ينصرف الجميع .. يبقى بجوار أفرانه المشتعلة . وطيناته . وطلاءاته . وخاماته . وأشكاله وتجاربه .. ومذكراته التى تتناثر صفحاتها على المنضدة بجوار نتائج التجارب التى يفحصها كل مساء ليدون ملاحظاته أول بأول .

وفي احدى الأمسيات . جمع الاستاذ أوراقه وهم بالانصراف وقد خرج كل من بالمعهد من طلبة ومدرسين وعمال . لكن . لفت نظره مصباح مضاء في معمل بعيد . وحين غذ السير الى هناك وأطل برأسه من الباب نصف المفتوح . شاهد الفتى سعيد منكبا على منضدته . فرفع رأسه قليلا فسأله بلطف ممزوج بالمزاح :

ـ أين تقطن أيها الشاب ؟

فوجيء سعيد بكلمات أستاذه تعكر صفو أفكاره فرفع رأسه قليلا وتأمله بنظرات شاردة :

ـ أين أسكن ؟ .. هنا .. على هذه المنضدة .

كان يقصد بالطبع . ان كل شيء ثانوى الى جوار الدرس والعمل .. حتى المسكن والطعام والشراب .

وفي هذه المناسبة يحسن أن نذكر حكاية أخرى تحدد بعدا من أبعاد شخصية الصدر . فان كنا نلاحظ في اجابته هذه شيئا من الحكمة والبلاغة والايمان الا انه كان منذ صباه لا يقبل السخرية أو الهزل الذى يقلل من شأنه . ففى يوم آخر كان رئيس قسم الخزف بالمعهد يطوف بالطلاب يتفحص أعمالهم فاستوقفه أوانى سعيد الصدر . وشد انتباهه استغراقه في العمل . تأمل الفتى قليلا ثم ربت على كتفه وسأله مبتسما :

ـ ترى ما اسم ملككم وعنوانه ؟

وأحس سعيد بنبرات السخرية تتخلل كلمات الأستاذ . فأجاب مندهشا :

ـ لماذا ؟

ـ « مبتسما » أريد أن أكتب له خطابا أحدثه فيه عن جدك واجتهادك .

فصعد الدم الى وجه سعيد وأحمرت اذناه وحاول أن يبتسم وهو يسأل أستاذه بدوره :

ـ ترى وما اسم مليككم وعنوانه ؟

ـ « مندهشا بدوره » لماذا ؟

ـ أود أن أبعث له برسالة أخبره فيها أنك مدرس ممتاز .

أردف المدرس وقد أحمرت وجنتاه بدوره أيضا :

ـ لكنك لا تستطيع أن تكتب الى الملك .

قال سعيد وهو يستشعر النجاح في الثأر لنفسه :



تمثال من نحت الفنان الصدر عام ١٩٤٠

ـ كذلك أنت . لا تستطيع ذلك تستطيع فقط أن تكتب الى مدير البعثة .

صحيح انها أحداث صغيرة . لكنها تعطيك أبعاد حقيقية لشخصية الصدر نستطيع أن نقتفى اثارها حتى الآن . فهو عنيف جدا لاول وهلة . لكنك لا تكاد تستأذن في الدخول الى قلبه . حتى تجد الرقة البالغة .. والحنان الغامر .. والمشاعر الرقيقة . والاحاسيس المرهفة ـ تراه شديد الاعتزاز بالنفس في نفس الوقت . فهو يحتفظ دائما بخيط رفيع بين الخشونة والرقة . والتكبر والكبرياء . قد يخطىء بعض الناس في رؤيته . فيظنون به القسوة والعنف . وحين يضن على الهازلين بعلمه يظنون به الامساك والحرص . ألا انه في واقع الأمر يفرق بين التربية الحقة والتدليل .

■ برنارد ليتش .. وحواريوه

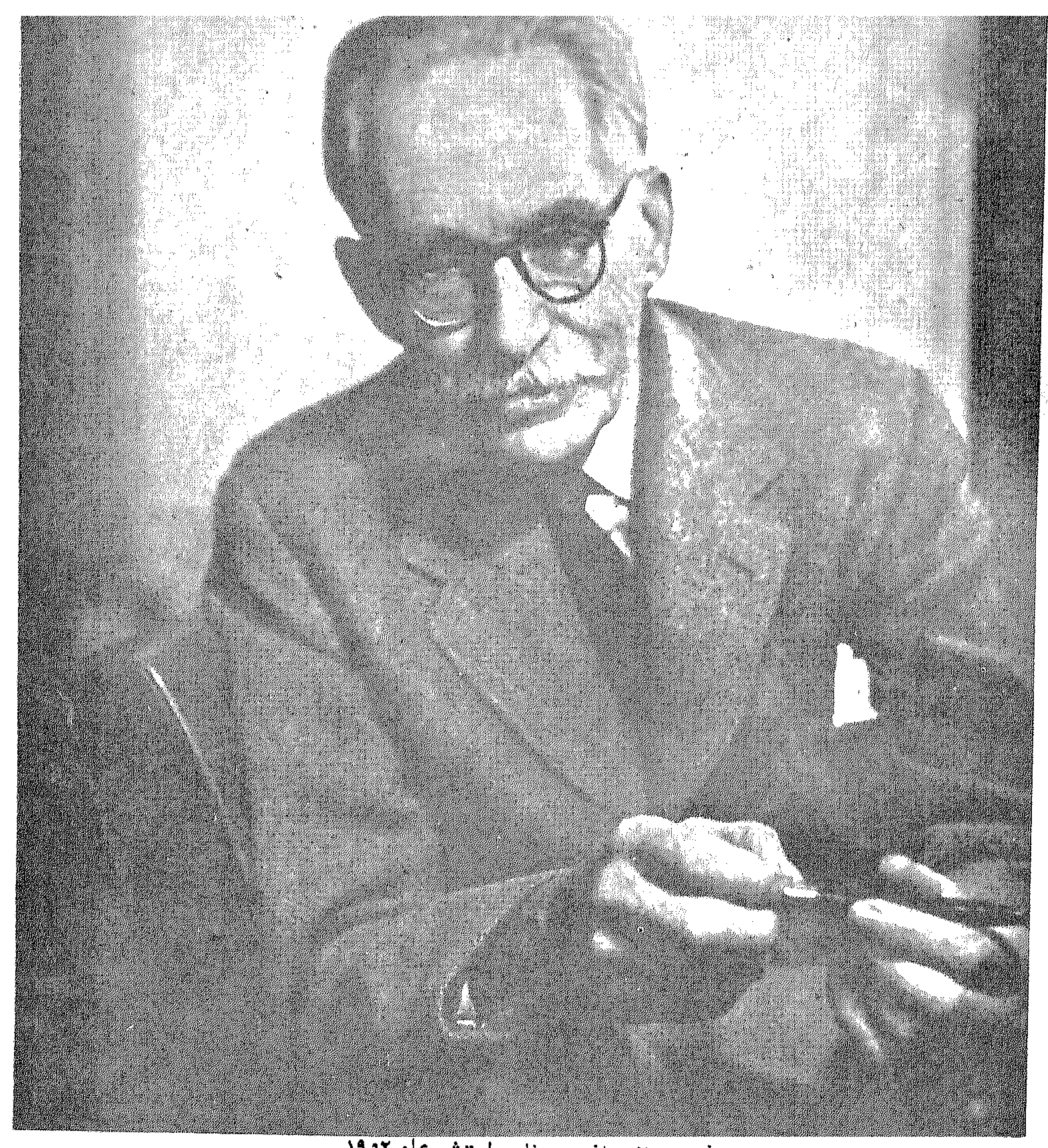
بدأ سعيد الصدر حياته في لندن كانشط مايكون عليه الشباب عملا واجتهادا .. كان يصحو في الصباح الباكر ويواصل العمل المضنى الى ساعة متأخرة من الليل .. طوال خمسة ايام في الاسبوع . أما السبت والاحد ، فراحة للعقل ومتعة للنفس بين المتاحف والمعارض ومراكز الندوات الثقافية والمحاضرات .. بالاضافة الى ممارسة الرسم والتصوير الفوتوغرافى . وفي الامسيات .. الى قاعات الموسيقى حيث يمتع روحه بالسيمفونيات الكلاسيكية .

اما اذا جاءت نهاية العام الدراسى .. فليس ثمة وقت فراغ على الاطلاق . كان في لندن في ذلك الزمان « ١٩٢٩ » خزاف طبقت شهرته أفاق أوروبا اسمه : برنارد ليتش ، يشتهر باسم الاب ليتش « داد ليتش » لانهم يعتبرونه ابو الخزف الانجليزى . كما نعتبر نحن سعيد الصدر الان : أبو الخزف المصرى .

كان للاب ليتش ورشة كبرى يلتحق بها حواريوه ومريدوه من شباب الخزافين الانجليز ومن أنحاء العالم ، نظير أجر مرتفع للغاية . حرص الصدر على أن ينضم الى تلاميذ ليتش ، اذ كان متطلعا الى أهداف رفيعة يود ان يحققها في أقصر وقت ليعود الى ارض الوطن بحصيلة من العلم والتجربة تمكنه من أن يبدأ مسيرة الخزف المصرى الذى تشعبت مدارسه وتفجرت ينابيعه بعد اثنين وأربعين عاما من النضال وبث الوعى بتذوق فن الخزف بين تلاميذه في الفنون التطبيقية ، والمثقفين في المجالات العامة ..

كان الصدر يعلم أن اليوم الدراسى في معهد كيمبرويل العالى يساوى عاما بأكمله في مدرسة ستوك ، التى رفض الانتظام فيها في أول أيامه في لندن . وأن اليوم في ورشة ليتش يساوى عاما في معهد كيمبرويل العالى .. والحقيقة أن الاب ليتش لم يكن يفتح ورشته للدروس الخصوصية كما يتبادر الى الذهن ، انما هو فنان يعمل بطريقة خاصة ، ويتقاضى أجرا عاليا نظير السماح للراغبين في مزاملته ومساعدته . وكان حظ سعيد الصدر من هذا كله ساعة واحدة في الاسبوع يلتقى فيها بالاستاذ ليتش ليسأله عن رأيه فيما يبدعه من أعماله . فالمسالة لم تكن تدريسا بقدر ماهى مراقبة .. ورفقة .. وتعاون .

كانت شخصية ليتش محببة وجذابة شأن كبار الفنانين . بدأ حياته الخزفية في الشرق الاقصى فدرس فنون الصين واليابان ووضع عدة مراجع عن فن الخزف .. وكان سعيد الصدر مبهورا بشخصية ذلك الاستاذ الساحر فاختلس النظر الى طريقة ابداعه وحاول أن ينسج على منواله ، الامر الذى أفزع الاستاذ واستثار غضبه ودفعه لان يصيح في وجه الفتى سعيد : لا تقلدنى تقليدا اعمى .. أذهب الى فنونكم وأنظر اليها من جذورها .. أذهب الى المتحف الاسلامى وتأمل مافيه من روائع وبدائع ..



الأستاذ الخزاف بيرنارد ليتش عام ١٩٥٢

كانت المرة الاولى والاخيرة التى قلد فيها الصدر فنانا اخر . شكلت كلمات ليتش بداية هامة وخطيرة لمسيرة الفنان الشاب . أصبح ليتش صاحب الاثر العميق في حياة الرائد الصغير ، علما وعملا وأسلوبا . كان يحيا معه في أيام العطلة حياة كاملة .. حياة الطعام والشراب والمأوى .. والعمل طبعا . وازداد التقدير المتبادل بين الاستاذ والتلميذ الى الحد الذى تنازل فيه ليتش عن المبالغ الكبيرة التى كان يفترض ان يدفعها سعيد مقابل تلك التلمذة التصوفية . كان ليتش يرى فى تلميذه نموذجا للجد والنشاط والذكاء والعبقرية . وكان سعيد يرى في



الفنان سعيد الصدر مع أستاذه بيرنارد ليتش في سنت ايفز عام ١٩٣٠

استاذه نموذجا للاب الروحى بالتراث الانسانى في اركان الارض . وظلت علاقة الصدر ببرنارد ليتش متصلة على مر السنين حتى رحيل الصدر الى استراليا سنة ١٩٧٢ . ويحتفظ الصدر بمجموعة من خطابات ليتش عبارة عن تقارير التجارب وتأملات في فن الخزف .

من الجدير بالذكر أن ننوه مرة أخرى بجرص سعيد الصدر طوال سنوات البعثة على أن يعمل بخامات محلية مصرية يسوردها من مصر ، ثم يعود فيرسلها بعد تشغيلها ، الى مصلحة الكيمياء المصرية لتعالج بمختلف الاحماض وتثبت جدارتها وكفاءتها . كانت معظم العينات المرسلة من نوع الخزف الزلطى المخبوز في حرارة عالية تصل الى ١٣٠٠ درجة . مما دفع صحف لندن الى الاشادة بنجاح الخزاف المصرى الشاب الذى كان يتخطى عامه العشرين انذاك . وبدافع من تعاليم ليتش اتجه الفتى الى التراث الشرقى العربى بنوع خاص ينقب فيه عن القيم الجمالية الاصيلة لفن الخزف . تلك القيم التى نمت وازدهرت وتطورت وأتخذت هذا الطابع الذى نسميه الان بالفن « السعيدى » بعد عشرات السنين من الابداع المتواصل .

حرص سعيد الصدر منذ يومه الاول في معهد ليمبرويل على تدوين المذكرات التفصيلية عن الابحاث والتجارب وماتحتويه من مقادير وأوزان ودرجات حرارة .. الخ .. ومايسمى بال « روشتات » . في كل عام .. كان الصدر يبدأ كراسة جديدة ، تحتوى على التجارب والتعليقات على النتائج . قبل أن يبدأ مذكرة العام ، كان يدرس حصيلة العام الماضى ويستخلص منها مخططا للعام التالى .. ولدى الصدر الان كنز من الابحاث بدأ بعام ١٩٢٩ ويستمر حتى الآن . كنز من العلم .. والفن .. والتراث والمعاصر . كنز أنسانى جدير بأن يطبع وينشر ، وأن نحرص عليه كما نحرص على أغلى درة في تراثنا الحديث . أنها مذكرات وأبحاث ودراسات في علم الخزف المصرى المعاصر . مذكرات في الطبيعة والكيمياء . فالمسألة لا تنحصر في الطلاءات والطينات والألوان فقط بل أيضا تتضمن الافران واشكالها ، والنار وتوزيعاتها ، وكل ما يتعلق بالعملية الابداعية . واذا كان الصدر لم ينشر نتائج ابحاثه حتى الان فذلك لان عملية النشر عملية تخصصية تختلف عن تخصص الفنان . فكما يتقن الصدر ابداع الأوانى هناك ناشرون محترفون متخصصون يجيدون عملية النشر . ومع ذلك لم يترك الصدر فرصة يضع فيها كتابا تربويا الا وضمنه بعض اكتشافاته في ميدان الخزف كما نلاحظ في كتاب « مدينة الفخار » . والواقع أن جميع مؤلفاته تربوية تعليمية . والمهم بعد ذلك ـ والكلمات هنا للفنان المهم هو القارىء ... المتلقى .. الذى يستقبل الكلمات والتجارب وينفذ . اذ أن جودة التنفيذ ونجاحه ليست مسئوليتى . فالبعض لا يعرف كيف يطبق ماأقوله .. ويظن بعد ذلك أننى أسخر منه ..

وضع سعيد الصدر سبعة مؤلفات بالاضافة الى ترجمة واحدة لكتاب مرجعي بعنوان : الخزفيات للفنان ، لمؤلفه ف . هـ . نورتن الانجليزى . استغرق عاما ونصف العام من الجهد المتواصل وضمنه فصلا كاملا من تأليفه عن فن الخزف في جمهورية مصر العربية .. افتتح الصدر سلسلة مؤلفاته بكتاب عنوانه « المعارف العمومية سنة ١٩٤٨ ، ثم اتبعه كتاب « الخزف والاشغال اليدوية » . ثم « الخزف والاشتراكية » الذى ضمنه تجرابته في مركز الخزف الذى كلفته وزارة الثقافة بانشائه والاشراف عليه سنة ١٩٦٠ ، وهو المركز الذى أقيم بين اطلال الفسطاط وظل يشع تعاليم الصدر بين صبية الفخرانية هناك طوال ثلاث سنوات .. أضطر بعدها الصدر الى ان يترك المركز ليتحول من بعده الى مكان شبه مهجور . ولنا عودة الى هذه التجربة الفريدة في تاريخ الحركة الفنية الحديثة . وبالاضافة الى المؤلفات السابقة أصدر كتاب « الفن التطبيقى في مصر » وهو يتناول فنونا أخرى مع فن الخزف ، ثم « الخزف والالوان المعدنية » . أما أخر مؤلفاته فهو « مئة سؤال .. لماذا ولان » وهو مؤلف تربوى لم يطبع بعــد ... ولكن الصدر طبع منه على نفقته الخاصة مائة نسخة على ورق الحرير . وجميع هذه المؤلفات كتبها الاستاذ الفنان كلما بعد عن الالوان والأفران ، وانصرف الى نفسه في ساعات الليل .



آنية باللون المعدني الأحمر تصميم وتنفيذ الفنان الصدر عام ١٩٦١



الكتاب الذهبى

يصدر عن
مؤسسة روز اليوسف

رئيس مجلس الادارة
مرسى الشافعى

العضو المنتدب
لويس جريس

الاشراف الفنى
محمد سليم

العنوان : القاهرة ـ مؤسسة روز اليوسف
٨٩ (أ) شارع القصر العينى ـ ت ٢٠٨٨٨
طبع بمؤسسة روز اليوسف

طبع في مطابع روز اليوسف

●

التجهيز :
مهندس عبد الرحمن محمد حسب الله رئيس القسم
مهندس عزيز جوده المصرى الاشراف على التنفيذ
مهندس عمر عبد العزيز نجم تصوير الأصول الملونة
قام بالتصوير أبيض وأسود : ظافين ميناس
مونتاج : محمد عبد الفتاح

●

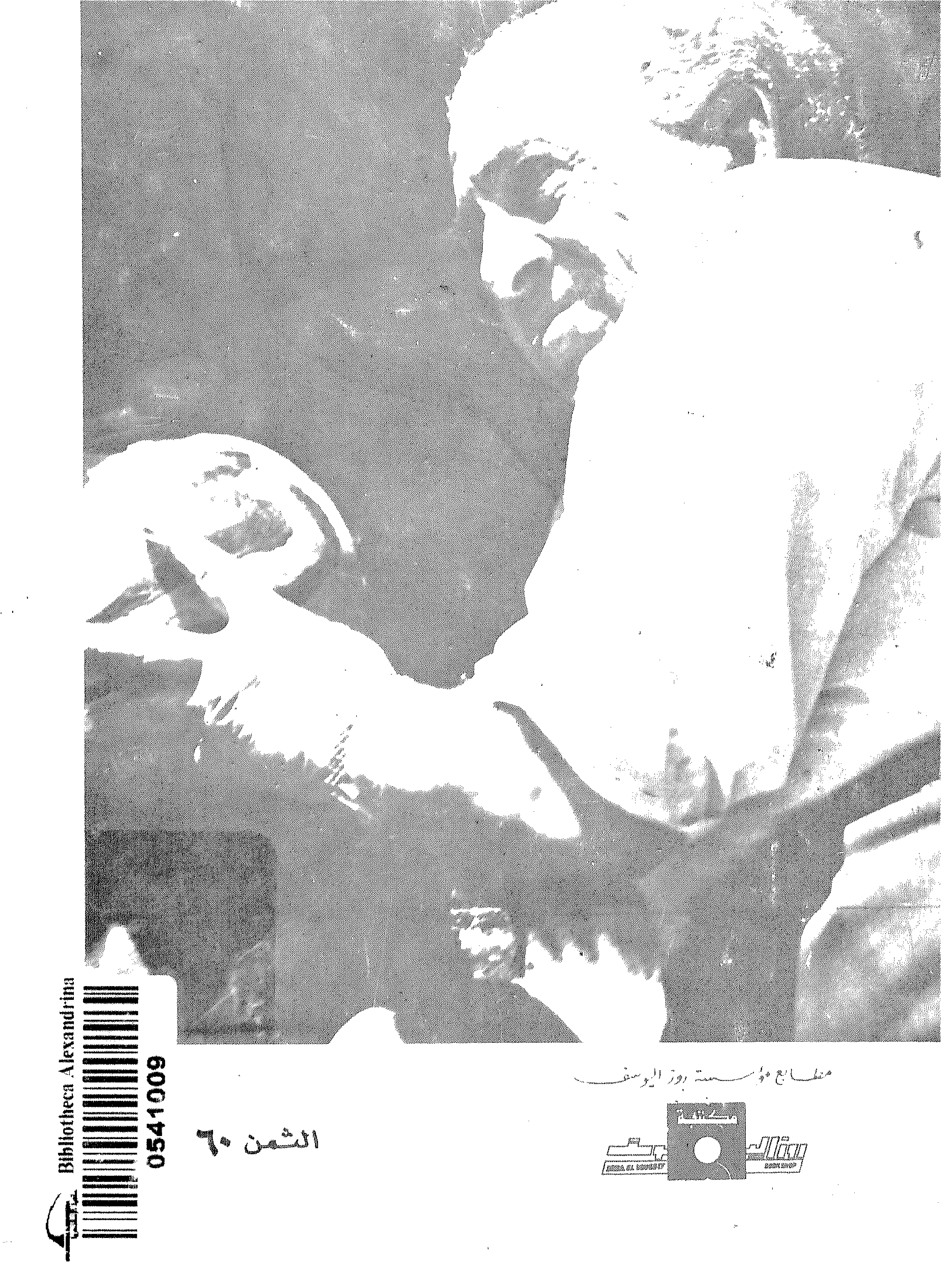
تم الطبع باشراف :
الحاج على السيد
سيد محمد السيد

●

الجمع التصويري باشراف :
محمد حسن السيد « الحاج كارم »

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٩/١٧٢٨



مطابع مؤسسة روز اليوسف

مكتبة روز اليوسف

ROSA EL YOUSSEF BOOK SHOP

الثمن ٦٠

ساحر الأواني
الفنان سعيد الصدر



مختار العطار